

الشيخ الإمام داعية الإسلام
بمجلدات مؤلفاته الشريفة

الوصايا

مردف

نال شرف إعدادة ومراجعتة

مركز البحوث الإسلامية والكتاب والسنة

مكتبة التراث الإسلامي

حقوق الطبع محفوظة
للمنشر

الطبعة الأولى
جمادى الأولى ١٤٢٢ هـ - يوليو ٢٠٠١ م



مكتبة التراث الإسلامي

٨ شارع الجمهورية عابدين القاهرة

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠٠١/١٠٨٠٢

الترقيم الدولي 1. I. S. B. N. 243- 260 - 977

Email: abdallahaggag@hotmail.com

3913406 فاكس: 3925677 - 3911397 هاتف: Islamic Turath Book Shop

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله حمداً طيباً مباركاً فيه على كريم جوده ، حمداً يحيط بمعاني الشناء على جميع وجوهه ، ونشكره سبحانه على نعمه التي لا تحصى ولا تعد على جميع عبيده .

وصلاة الله تعالى وسلامه على النبي الأُمِّيِّ ، التقى ، النقيِّ ، السيد القريب ، الوليِّ الحبيب ، صاحب الخلق العظيم الذي أرسله ربه ليتمم مكارم الأخلاق ، ورضى الله تعالى عن آله الأكرمين ، وأزواجه الطاهرات المطهرات أمهات المؤمنين ، وأصحابه الغر الميامين ، وجميع التابعين الطائعين ، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين .

وأشهد ألاَّ إله إلاَّ الله وحده لا شريك له ، شهادة مُقرِّ بربوبيته ، عارفٌ بوحدانيته .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وصفيه وخليله ، اصطفاه لوحيه ، وختم به أنبياءه ، وجعله حجة على جميع خلقه ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال : ٤٢]

وامتدحه سبحانه في كتابه الكريم ، فقال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَّيْ

خُلِّفَ عَظِيمٌ ﴾ [القلم : ٤] .

ثم أما بعد .. اعلم يا أخى - وفقك الله تعالى - أن أول

شيء يجب عليك معرفته بعد معرفة الله سبحانه ، وإفراده

تعالى بالوحدانية ، هو متابعة النبي ﷺ والاقتداء به . قال تعالى :

﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [النساء : ٨٠] ، وقال

تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ

كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

وقد رتب الله سبحانه وتعالى حصول الخيرات في الدنيا

والآخرة ، وحصول الشرور في الدنيا والآخرة في القرآن

العظيم على الأعمال ، ترتيب الجزاء على الشرط ، والمعلول

على العلة ، والمسبب على السبب ، وهذا في القرآن الكريم

يزيد على ألف موضع ، ومن أوجب هذه الأعمال طاعة رسول

الله صلى الله عليه وسلم ، وقد ورد الأمر بذلك في القرآن

العظيم في مواضع كثيرة ، منها :

قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾ .

• [آل عمران : ٣٢]

وقوله تعالى : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ [النساء : ٥٩] .

وقوله تعالى : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ [الأنفال : ٢٠] .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ [النور : ٥٦] .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ [الأحزاب : ٣٣] .

وجعل سبحانه وتعالى من ثمرة الطاعة ومثوبة الطائعين :

وقوله تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ .

• [آل عمران : ١٣٢]

وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ

فِيهَا ﴾ [النساء : ١٣] .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ

اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ

وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء : ٦٩] .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَخَشِيَ اللَّهََ وَسَتَقَدْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ [النور : ٥٤] .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ .

[الفتح : ١٦] .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا ﴾ [الحجرات : ١٤]

وحذر سبحانه وتعالى من عدم متابعة الرسول ﷺ وإطاعة أمره والتسليم له .

قال سبحانه : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٥] .

وبالجملة فالقرآن العظيم ملئ بالحض على الطاعة والتأدب مع رسول الله ﷺ . ورأس الأدب معه صلوات الله وسلامه عليه وآله كمال التسليم له والانقياد لأمره وتلقّي خبره بالقبول والتصديق دون أن يحمله معارضة خيال باطل يسمّيه معقولا ،

أو يُقَدِّمَ عليه آراء الرجال ، فيؤخِّدَه بالتحكيم والتسليم
والانقياد والإذعان ، كما وُحِّدَ المُرْسِلُ سبحانه وتعالى
بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل ، فهما توحيدان لا
نجاة للعبد من عذاب الله تعالى إلا بهما : توحيد المرسل
سبحانه ، وتوحيد متابعة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم .
ولعمر الحق لقد كان الإمام الهروي نافذ البصيرة حين انتزع
منزلة « الأدب » في كتابه القيم « منازل السائرين » والذي
شرحه العلامة ابن القيم وسماه : « مدارج السالكين » من قوله
تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا
النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ [التحریم : ٦] . قال ابن عباس : « أدَّبُوهم
وعَلِّمُوهم » (١) .

وهذا الكتاب الذي بين يديك : جليل القدر ، عظيم النفع ،
حافل بالعلم القائم على الأصول الصحيحة والفهوم السديدة ،

(١) من مقدمة كتاب الآداب الشرعية لابن مفلح [٦/١] ،
ومدارج السالكين لابن القيم [٣٧٥/٢] ، ومكارم الشريعة
للأصفهاني [ص : ١١١] .

جامعاً لمكارم الأخلاق ومعاليها ، والذي من شأنه أن يعين على تحقيق سعادة الدارين بكمال متابعة هدى النبي ﷺ في واحد من أهم أمور الدين ألا وهو « الخلق » فقد ثبت عنه صلوات الله تعالى وسلامه عليه وآله أنه قال : « بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ » (١) .

فكأن مقصود الرسالة المحمدية هو تنمية الإحساس الأخلاقي

(١) رواه أحمد في المسند [٣٨١/٢] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ، وقال الأرنؤوط : صحيح ، وهذا إسناد قوى ، رجاله رجال الصحيح ، غير محمد بن عجلان ، فقد روى له مسلم متابعة ، وهو قوى الحديث .

قال ابن عبد البر في التمهيد [٣٣٢/٢٤] قوله : « لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ » يدخل في هذا المعنى الصلاح والخير كله ، والدين والفضل والمروءة والإحسان والعدل ، فبذلك بُعث ليتممه ، وقد قالت العلماء : إن أجمع آية للبر والفضل ومكارم الأخلاق قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [التحل : ٩٠] .

فى بنى البشر ، وإنارة آفاق الكمال أمام أعينهم حتى يسعوا إليها على بصيرة (١) .

ومن هنا كان التأكيد على الشعرة الأخلاقية لكثير من العبادات بحيث تفارق كونها طقوساً وشعائر مبهمه ، وتعمل على تحرير الطاقات الأخلاقية الكامنة فى الكينونة الإنسانية فيترقى هذا الكائن فى مدارج الكمال الإنسانى ويصبح وجوده ذا مغزى عميق تتجلى من خلاله القدرة الإلهية فى صياغة المجتمع الفاضل والحياة الكريمة لبنى الإنسان ، ومن هنا نفهم قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] .
وقوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ [التوبة : ١٠٣] . إلى غير ذلك من الآيات التى تؤكد على المغزى الأخلاقى والروحى للعبادات والشعائر .

(١) انظر خلق المسلم للشيخ محمد الغزالي رحمة الله تعالى عليه

[ص : ٦] .

فإذا كان ذلك كذلك ، فاعلم أن هناك علاقة وثيقة جدًا بين الدين والأخلاق ^(١) . وأن الأخلاق إنما هي دين تحول إلى قواعد للسلوك ، أى : تحول إلى مواقف إنسانية تجاه الآخرين وفقًا لحقيقة الوجود الإلهي ^(٢) .

والتأمل لأحوال المسلمين الآن يدرك ببصيرته النافذة ما آلت إليه الأخلاق من تراجع وانحلال ، مما حدا بالكثير من العلماء إلى تصنيف الكتب التى تعالج كثيراً من المفاصد الأخلاقية الناشئة عن ضعف التمسك بالدين .

ويأتى فى طليعة هؤلاء العلماء الأجلاء الذين تصدوا بقولهم وسلوكهم لتوجيه الناس إلى أصول الأخلاق ومحاسن الفضائل ومداواة النفوس فى عصرنا هذا الملىء بالمناهج الهدامة التى تقدم العقل على النقل ، والفساد الأخلاقى الذى أفضى

(١) مقدمة كتاب الآداب الشرعية لابن مفلح [ص : ٨ ، ٩] .

(٢) الإسلام بين الشرق والغرب ، على عزت ييجوفتش

[ص : ١٩٣] .

إلى خور العزائم ، والنكوص عن متابعة هدى أكمل الخلق
صلوات الله تعالى وسلامه عليه وآله .

فضيلة العارف بالله الشيخ الإمام

« محمد متولى الشعراوى »

شيخ الزمان ، وترجمان القرآن ، الذى ملأ الدنيا بسور
القرآن ، وجمع الناس على ذكر الله وتلاوة كتابه وصردهم
عن لهو الدنيا ، وبذل جهوداً عظيمة فى سبيل تصحيح
المفاهيم ، ورد شبهات الطاعنين فى القرآن العظيم ، وتصدى
بحرم وقوة لهؤلاء الجهلاء ، وأبدع رضى الله تعالى عنه فى
الاستنباط من القرآن الكريم ، وحهر بالحق فى وجه كل من
حد عنه ، فكان رحمة الله تعالى عليه فى هذا العصر « أمة
وحده » جمع الله فيه كل فضائل الخير ، وخلف لنا
تفسيراً للقرآن الكريم من أصح كتب التفسير وأشملها ، كتب
فى مقدمته :

(... فهذا - بصاد عمري العملى ، وحصيلة جهادى
الاجتهادى ، شرفى فيه أنى عشقت كتاب الله ، وتظامنت

لاستقبال فيض الله ، ولعلني أكون قد وفيت حق إيماني ،
وأديت واجب عرفاني » (١) .

فالزم يا أخي الأدب ، وفارق الهوى والغضب ، واعمل في
أسباب التيقظ ، واتخذ الرفق حزباً ، والتأني صاحباً ،
والسلامة كهفاً ، والفراغ غنيمه ، والدنيا مطية ، والآخرة منزلاً .
قال الحسن رضي الله تعالى عنه : إن الله تعالى لم يجعل
للمؤمن راحة دون الجنة .

واحذر مواطن الغفلة ، ومخاتل العدو وطربات الهوى ،
وضراوة الشهوة وأمانى النفس ، فإن رسول الله ﷺ قال :
« أعدى أعدائك نفسك التي بين جيبك » (٢) . وإنما صارت
أعدى أعدائك لطاعتك لها .

وكل أمر لاح لك ضوؤه بمسهاج الحق ، فاعرضه على

(١) كلمة بخط الشيخ رضى الله تعالى عنه في مقدمة تفسير
الشعراوى - دار أخبار اليوم .

(٢) رواه البيهقي في الزهد بإسناد ضعيف ، وراجع كشف
الحفء [١٤٣/١] ، وتخريج أحاديث الإحياء للعراقي [٧/٨] .

الكتاب والسنة والآداب الصالحة فإن خفى عليك أمر فخذ فيه
رأى من ترضى دينه وعقله .

واعلم أن على الحق شاهداً بقبول النفس له ، ألا ترى قول
رسول الله ﷺ : « استفت قلبك وإن أفثاك المفتون » ^(١) وقيد
الجوارح بأحكام العلم ، وراع همك بمعرفة قرب الله منك ،
وقم بين يديه مقام العبد المستجير : تجده رعوفاً رحيماً .

(١) رواه أحمد في المسند [٢٢٨/٤] ، والدارمي [٢٤٦، ٢٤٥/٢] ،
وأبو يعلى [١٦٢: ١٦٠/٣] عن وابصة بن معبد رضى الله
تعالى عنه ، ولفظ أحمد : « يا وابصة جئت تسأل عن الر
والإثم » . قلت : نعم .

قال : فجمع أصابعه فضرب بها صدره وقال . « استفت
نفسك واستفت قلبك ثلاثاً ، البر ما اطمأنت إليه النفس
واطمأن إليه القلب ، والإثم ما حاك في النفس وتردد في
الصدر ، وإن أفثاك الناس » .

ولفظ : « أفثاك المفتون » هنا ذكره البحارى في التاريخ
الكبير ، وانظر تعليق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمة الله تعالى
عليه على رسالة المسترشدين للإمام الحامسى [ص: ٨٤] .

وقال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل ينزل العبد من نفسه بقدر منزلته منه » ^(١) . وذلك على قدر الخشية لله ، والعلم به ، والمعرفة له .

واعلم أنه من أثر الله أثره ، ومن أصداعه فقد أحبه ، ومن ترك له شيئاً لم يعذبه به ، كما قال رسول الله ﷺ : « دع ما يريك إلى ما لا يريك » ^(٢) . فإنك لن تجد فقد شيئاً تركته لله .

(١) جزء من حديث ورد في فصل ذكر الله عز وجل بنحو هذا اللفظ ، قال المنذرى في الترغيب [٦٥/٣] ، [٥٣٤/٥] رواه ابن أبي الدنيا ، وأبو يعلى ، والبرار والطبراني ، والبيهقي وقال : صحيح الإسناد ، وفي أسانيدهم كتبهم عمر مولى غفرة . ضعفه ابن معين والسنائي ، وقال أحمد : ليس به بأس ، لكن أكثر حديثه مراسيل ، وقال ابن سعد . ثقة كثير الحديث ، وبقية أسانيدهم ثقات مشهورون محتج بهم ، والحديث حسن ، والله أعلم .

(٢) جزء من حديث رواه أحمد في المسند [٢٠٠/١] ، والترمذي [٢٥١٨] ، وقال : حسن صحيح . وصححه الألباني .

واخيم القلب عن سوء الظن بحسن التأويل ، وادفع الحسد بقصر الأمل ، وانف الكبر باستبطان العز ، واترك كل ما فعله يضطرك إلى اعتذار ، وجانث كل حال يزميك في التكلف ، وصن دينك بالاعتداء ، واحفظ أمانتك بطلب العلم ، وخصن عقلك بأداب أهل الحلم ، واستعد بالصبر لكل موطن ، والزم الخلوة بالذكر ، واصحب العم بالشكر .

واستعن بالله في كل أمر ، واستخز الله في كل حال ، وما أرادك الله له فاترك الاعتراض فيه ، وكل عمل تحب أن تلقى الله به فألزمه نفسك ، وكل أمر تكرهه لعيرك فاعترله من أخلاقك . وكل صاحب لا ترداد به حيراً في كل يوم فابعد عنك صحبته . وخذ بحطك من العفو والتجاوز .

واعلم أن المؤمن يختبر صدقه في كل حال ، مُطْلَبُ نفسه باللوى ، رقيب لله على نفسه فاثبت على محبة الحق فإنك مراد العون .

واصدق في الطلب تَرِثُ علم البصائر ، وتَبْدُ لك عيون المعارف ، وتميِّزُ بنفسك على ما يَرِدُ عليك بخالص التوفيق ،

فإنما الشُّبُّقُ لمن عمل ، والخشية لمن علم ، والتوكل لمن وثق ،
والخوف لمن أيقن ، والمزيد لمن شكر ^(١) .

هذا ما أردت أن أتقدم به بين يدي هذا الكتاب الجامع الذي
يحتاج إليه كل عالم وعابد بل وكل مسلم لما فيه من الآداب
الشرعية والحكم القرآنية .

وهذا الكتاب هو الأول في سلسلة كتب هادفة بعنوان
« الوصايا » لتربية الناشئة والشباب على مكارم الأخلاق
وفضائل الأعمال

وإيما الأئمة الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا ^(٢) .

(١) رسالة المسترشدين للمحاسبي [ص : ١٢ : ١٥] .

(٢) القائل هو أمير الشعراء أحمد شوقي في قصيدة بعنوان :

الشعب والقوم ، وفيها :

هل غلغلتُم أُمَّةً في جَهْلِهِ؟	ظهرت في مجيئ خشاة الرداء؟
بسطنُ الأُمَّة من ظاهرها	إنما السائل من ثوب الإناء
مخنوا العلم على أغلاييه	واطلبوا الحكمة عند الحكماء
واقصروا تاريخكم واحتفظوا	بقصيح خاءكم من فصحاء
واحكموا الدنيا بشلطان فما	تخلقت نضرتهما للضعفاء =

جمعت مادته من خواطر ودروس فضيلة العارف بالله الشيخ محمد متولى الشعراوى رحمة الله تعالى عليه ، وتم شرحها والتعليق عليها وتبويبها ، وإضافة ما قصرت عنه المادة من الكتب الأخرى ، كمؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية ، وابن القيم ، والإمام القرطبي ، وابن كثير ، وابن حجر العسقلاني ، وغيرهم .

وتخريج أحاديثها والحكم عليها من خلال كتب الجرح والتعديل ، وكتب العناء التي صنفها الصحيح والضعيف . مع الاستفادة بالكتب المحققة من قبل علماء الحديث وذلك بمعرفة مركز التراث لخدمة الكتاب والسنة .

حرى الله الجميع خيراً ، وجعل كل ذلك فى ميزان حسناتهم .

والله اسأل حسن القصد والنية وأن ينفع به كاتبه وقارئه وناشره ، وأن يجعله سبحانه عام النفع والبركة ، وأن يعجل

هين صاقت فاطميه فى الشتاء
 وإن هم ذهبوا أخلأهم ذهبوا
 وإن نزلت مَصُوا فى إثرها قُدَمَا
 إذا رعى صدق فى الله أو رحما

واطلبوا المجد على الأرض وإن
 وإنما الأثم الأخلاق ما بقيت
 وإنما الأثم الأخلاق ما بقيت
 فَمَا عَلَى الْمَرْءِ فى الأخلاق من عرج

خير الجزاء لشيخنا الراحل جزاء ما قدم ، وأن يخلفه في آله
رضى الله تعالى عنهم ، إنه سبحانه نعم المولى ونعم النصير
وبالإجابة جدير .

وصلى اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

عبد الله حجاج

ربيع الأول ١٤٢٢

يونيه ٢٠٠١



الإخلاص فى العمل

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلِكُلِّ دَرَجَةٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : ١٣٢] .
ومعنى ﴿ وَلِكُلِّ ﴾ أى : أنه لكل من الإنس والجن درجات مما عملوا ، والدرجات معناها أن الأعمال تتفاوت ، والأعمال مدارها على الية ^(١) ، والنية محلها القلب ، ولا يطلع على القلوب إلا الله تعالى .

ولذلك فإن الرقيب العتيد يسجل الأعمال الظاهرة ^(٢) .
ولكن الإخلاص فى القلب ، لا يعرفه إلا الله سبحانه وتعالى .
وهو الذى يُحاسب عليه ، وعليه مناط الأمر كله .

(١) أخرج البخارى [١] عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قال . قال رسول الله ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ مَا يَلْبِطُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق : ١٨] .

وتكون درجات المؤمنين على حسب التزامهم بأمر الله تعالى ،
 ليس هذا فقط بل مدى تطوعهم بأعمال هي من جنس ما
 فرضه الله تعالى عليهم ، زيادة عما فرضه سبحانه عليهم ،
 فمثلاً نجد أن الله تبارك وتعالى فرض الصلوات الخمس ،
 ولكن العبد المؤمن يتطوع بصلوات أخرى غير المفروضة
 كالسنن الرواتب مثلاً ، ويقوم الليل ، وهذا هو مقام الإحسان ،
 الإحسان بمفهومه المادى ، والإحسان بمفهومه المعنوى ، وهو كما
 جاء فى الحديث : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه
 يراك » كما علمنا الرسول ﷺ فى حديث حبريل المشهور (١) .

والله تعالى فرض الصيام فى رمضان ولكن بعض الناس
 يتطوع فيصوم الاثنين والخميس من كل أسبوع ، أو ثلاثة أيام
 وسط الشهر العربى ، ومنهم من يصوم يوماً ويفطر يوم ، وكل
 هذا زيادة على ما فرض الله ، ولكنه من جنس ما فرض سبحانه .
 وهناك من الناس من يقف عند ما فرضه الله ، وفى الحديث
 أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ وقال له : لن أزيد على ما

(١) أخرجه البخارى [٤٧٧٧] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ،
 ومسلم [١/٨] عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه .

فرض الله شيئاً ! فقال الرسول ﷺ : « قد أفلح إن صدق » (١) .
فإذا كان من يؤدي ما فرضه الله قد أفلح ، فالذي يزيد على
ما فرض الله شريطة أن يكون من حنس ما فرض الله يكون
أشد فلاحاً ، وهكذا تتفاوت الدرجات بين الناس في أعمالهم ،
والدرجات تفيد العلو والدركات تفيد الهبوط .

(١) روى أحمد في المسند [١٦٢/١] عن طلحة بن عبيد الله قال :
جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ قال : يا رسول الله :
ما الإسلام ؟ قال : « خمس صلوات في يوم وليلة » .
قال : هل علي غيرهن ؟
قال : « لا » .
وسأله عن الصوم .
قال : « صيام رمضان » .
قال : هل علي غيره ؟
قال : « لا » .
قال : وذكر الزكاة قال : هل علي غيرها ؟
قال : « لا » .
قال : والله لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن .
فقال رسول الله ﷺ : « قد أفلح إن صدق »
وقال الأرنؤوط إسناده صحيح على شرط الشيخين . وأخرجه
بنحوه البخاري [٢٦٧٨] .

التواصى بالحق والخير

كريم الله أمة محمد ﷺ بالفضل الكبير ، وميزها بأن تكون
مناعتها دائماً في ذوات أفرادها ، فإن لم تكن في ذوات الأفراد
ففي كل المجموع ؛ ولا يخلو الزمان من رجل صالح يقول
لمنكر لا (١) ، ولذلك لم يأتى رسول بعد رسول الله ﷺ .
فلو كانت هناك طامة سوف تُفسيد المجتمع وتذيب ماعة كل
أفراده لكان من اللازم أن يأتى رسول .

(١) روى أبو داود [٤٢٩١] عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه
قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله يعث لهذه الأمة على
رأس كل مائة سنة من يحد لها دينها » .
وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [٣٦٠٦] ، ورواه
الحاكم فى المستدرک [٥٦٧/٤] .
وأخرج مسلم [١٩٢٠/١٧٠] عن ثوبان رضى الله تعالى عنه
قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين
على الحق لا يضرهم من حذلهم حتى يأتى أمر الله وهم
كذلك » .

ولكن لما كان محمداً ﷺ هو خاتم النبيين (١) ؛ فقد فضل الله سبحانه وتعالى أمته ﷺ على سائر الأمم (٢) ، فجعل وازعها دائماً فيها ، بحيث تكون النفس لوامة لكل فرد . والمجتمع نفسه يحمي الإنسان من الوقوع في الخطأ ، فيوجد في المجتمع أناس يقومون بالوعظ والنصح ، ويكون كل واحد في المجتمع « موصياً » وكل واحد « موصى » ولتقرأ قول الحق :

﴿ وَالْعَصْرُ ۝ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ۝ ﴾ [العصر] .

(١) قال الله تبارك وتعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَئِن كَرِهَ رَسُولُ اللَّهِ وَحَاطَمَ لَيَبِيسَنَّ ﴾ .

وأخرج البخاري [٣٣٤٢] ، ومسلم [٢٢٨٦/٢٠] عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « مثلي ومثل الأنبياء ؛ كمثل رجل بى بنياناً فأحسسه وأجمله . فجعل الناس يطيفون به ، يقولون : ما رأينا بنياناً أحسن من هذا . إلا هذه اللنة . فكنت أنا تلك اللبة » .

(٢) قال سبحانه وتعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ .

ومادة « تفاعل » تشرح لنا معنى « تواصى » مثلها مثل
تشارك ، ومعنى ذلك أن كل واحد يقوى الوصية ، وكل واحد
يتقها نصيحة ؛ وذلك لأن النفس البشرية من الأغيار فقد
تهيج النفس على المنهج مرة ، فتأتى الشرّة بالشروء عن المنهج
حينئذ يقوم واحد وينصح وينبّه ، ويردّها الإنسان لصاحبه بعد
فترة .

فالتواصى يقتضى أن يكون كل واحد موصياً وكل واحد
موصى ، وكل واحد فى المجتمع الإيماني يفتح عينيه بالانتباه
تنصح الآخرين بالابتعاد عن الضعف ، وبذلك لا يتعديهم أن
يوجد فى الأمة المحمّدية من يوصى بالخير فى موقف وموص
فى موقف آخر بحيث لا يتأى الإنسان على وصاية غيره ، ولا
عجب فالمؤمن مرآة أخيه ^(١) .

(١) روى أبو داود [٤٩١٨] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه
قال : قال رسول الله ﷺ : « المؤمن مرآة المؤمن والمؤمن أخو
المؤمن ، يكف عليه ضيعته ، ويحوطه من ورائه » ، وحسنه
الألبانى فى صحيح أبو داود [٤١١٠] .

الضرب على يد صاحب المنكر

يريدُ الله أن يَلْفِتَنَا إلى إتنا يَجِبُ ألا نترك الفتن والمعاصي حتى يستغصبي حلها وتصبح كبيرة ، بل لابد أن نواجهها وهي صغيرة لأنه في هذه الحالة إذا نزل العقاب فإنه لا يصيب الذين ظنموا فقط ولكنه يصيب أيضاً من تركوا هذه الفتن تكبر وتزداد ، ولذلك إذا رأيت أي انحراف في أي شيء فاضرب على يد المتحرف فإن المعصية تكبر إذا تركت ؛ فلدى تمرس في الإحرام حتى أصبح زعيم عصاة مثلاً لم يبدأ المعصية هكذا ، بل إنه ربما أول ما سرق سرق من أبيه ، أو من أمه ، أو من أخيه ، ولم يُعاقب ، فسرق من الجيران ، ثم بدأ يسرق من الحي ، ثم اجتمع مع عدد من الأشرار وكون العصاة ؛ فلما أنه ضرب على يده في الجريمة الصغيرة لما أصبح زعيم عصاة ، وإياك أن تقول إن هذا الشيء ما دام لم يمسن فليس من شأنى لأن الذى اعتدى على غيرك من الشهر أن يعتدى عليك . وكلنا نذكر مثلاً قصة الثور الأبيض والثور

الأحمر عندما جاع الأسد تركه الثور الأحمر يأكل الثور الأبيض ما دام لم يتعرض له بأذى ، ثم لما جاع الأسد انطلق ليقترب الثور الأحمر الذي قال : « أنا أكلت يوم أكل الثور الأبيض » لأنني لو وقفت يومها مع الثور الأبيض تواجه الأسد وقاوشاه لما جرؤ على أن يقترب أياً منّا (١) .

(١) يروى أن أمير المؤمنين علياً رضي الله تعالى عنه قال : إنما مثلي ومثل عثمان كمثل أنوار ثلاثة كن في أجمة أبيض وأسود وأحمر ، ومعهن فيها أسد ، فكان لا يقدر منهن على شيء لاجتماعهن عنده ، فقال للثور الأسود والثور الأحمر : لا يدل عليا في أحمتنا إلا الثور الأبيض فإن لونه مشهور ولوي على لونكما ، فلو تركتما بي آكله صفت لك الأجمة ، فقالا : دونك فكله ، فأكله ، ثم قال للأحمر : لو بي عني لونك ، فدعني أكل الأسود تتصموا لنا الأجمة ، فقال : دونك فكله ، فأكله ، ثم قال للأحمر : إني أكلك لا محالة ، فقال : دعني أنادي ثلاثاً ، فقال : افعل ، فنادى ألا إني أكلت يوم أكل الثور الأبيض ، ثم قال عني رضي الله تعالى عنه . ألا إني هُت ويروى : وهت يوم قتل عثمان يرفع بها صوته .

مجمع الأمثال للميداني : الجزء الأول ، الباب الأول ، فيما أوله همزة .

ولكن لماذا يُعَمِّمُ العقاب ؟ لأنهم لم يضربوا على يد صاحب
 الفِئْتَةِ الأولى وهي لا تزال صغيرة ، فالأب مثلاً إذا وحد
 الابن أو الابنة إذا أخضرأ أشياء من الخارج وهو لم يُعْطِهُمَا
 ثَمَّهَا فلا بُدَّ أن يُسألَهُمَا مِنْ أينَ لك هذا ؟ ولنا في قصة
 سيدتنا مريم وسيدنا زكريا العبرة والعِظَةُ حين سألها ما وجد
 عندها ررق لم يأت به وكان عليه السلام كافلها ، والقائم على
 أمرها ، فقال لها : ﴿ أَفَنَ لَكَ هَذَا ﴾ [آل عمران : ٣٧] .
 إذن .. يجب أن يُضرب عني يد كل معتد ؛ ولذلك فإنَّ
 الحقَّ سبحانه وتعالى في عقوبة القتل - الذي هو قمة المفاسد -
 جعل الدِّيَّةَ على العائِلَةِ حتى يضربوا على يد مَنْ تُسَوَّلُ له نفسه
 قبل أن يرتكبت الجريمة . والناس إذا رأوا الظالم ولم يضربوا
 على يده - يُوشِكُ أن يعُمَّهم الله تعالى بعقاب من عبده ، لأنه ما
 امْتَشَرَى هذا الظالم في ظُلمِهِ إلا لأنَّ الناس سكتوا على هذا
 الظلم . وأنت حين تَسْتَشِرُ على مَنْ يفعلُ شراً لِسَقَى بذلك
 شره فإنه لا بد وأن سيأتي اليوم الذي يُصِيبُكَ منه شرٌ كبيرٌ .

ولذلك فسيّدنا أبو بكر الصّدّيق رضی اللّٰه عنه قال : إنكم
تقرأون آية في كتاب اللّٰه على غير وجهها ، تقرأون قوله سبحانه
وتعالى : ﴿ لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلَّىٰ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ ﴾ ^(١) [المائدة : ١٠٥]
ومن هدايتكم أن تضربوا على يد صاحب المنكر لأن هدايته
ستنعكس عليكم وعلى المجتمع كله بالخير ، ورسول اللّٰه صلى
اللّٰه عليه وسلّم يُعطينا المثل الذي يُعطينا الصورة كاملة فيقول
عليه الصّلاة والسلام :

« مثل المدّس في حدود اللّٰه والواقع فيها مثل قوم استهموا
سفينة فصار بعضهم في أسفلها و صار بعضهم في أعلاها ،
فكان الذين في أسفلها يملّون بالماء على الذين في أعلاها فتأذوا
به ، فأخذ فأسًا فجعل ينقر أسفل السفينة ، فأتوه فقالوا : مالك ؟

(١) روى أحمد في المسند [٧/١] عن أبو بكر رضی اللّٰه تعالى
عنه قال : إني سمعت رسول اللّٰه ﷺ يقول : « إن الناس إذا
رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك اللّٰه أن يعمهم بعقابه » .
وقال الأرناؤوط إسناده صحيح على شرط الشيخين . وأبو
دود [٤٣٣٨] ، والترمذی [٢١٦٨] وابن ماجه [٤٠٠٥]
وصححه الألبانی في صحيح الترمذی [١٧٦١] .

قال : تأذيتم بى ولا بد لى من الماء ، فإن أخذوا على يديه أنجوه ونجوا أنفسهم ، وإن تركوه أهلكوه وأهلكوا أنفسهم ، (١) .
 هذا الحديث يُقسَّم الناس إلى قِسْمَيْن : قائم على حدود الله وَوَاقِع فيها ؛ وقد رَكِبُوا سَفِينَةً ، وَالسَّفِينَةُ لها أَعْلَى - وَهُوَ السَّطْحُ - وَأَسْفَل .

ومعنى اسْتَهَمُوا على سَفِينَةٍ ، أى : لَمْ يُوجَد قَوِيٌّ قَرَضَ سُلْطَانَهُ على غَيْرِهِ لَأَنَّهُمْ ما دَامُوا اسْتَهَمُوا أى أَجْرُوا قُرْعَةً وهذا يَحْدُثُ كُلُّما اخْتَلَفَ النَّاسُ على شَيْءٍ مِثْلُ مَسْأَلَةِ الْفُرْعَةِ الْحِشْمِ الْخِلَافِ - فَقَدْ حَسَمُوا الْأَمْرَ بَيْنَهُمْ .

وكان الذئب فى أسفل السَّفِينَةِ - إذا أَرَادُوا الماءَ - صَعَدُوا إِلَى السَّطْحِ لِئَلْقُوا الدَّلْوَ وَيُحْضِرُوا الماءَ ، فَقَالُوا نَحْنُ نُؤْذِي الْمَقِيمِينَ على السَّطْحِ وَنَتَغَبَّ صُعُوداً وَهُبُوطاً فَلَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فى الْجُزْءِ الْخَاصِّ بِنَا خَرْقاً نَأْخُذُ مِنْهُ الماءَ لَكَانَ ذَلِكَ مُرِيحاً بِأُشْبَةِ

(١) أخرجه البخارى [٢٦٨٦] عن النعمان بن بشير رضى الله تعالى عنه .

لَنَا فَلَوْ أَنَّهُمْ تَرَكُوهُمْ يَخْرِقُونَ الْحَرَقَ الَّذِي يُرِيدُونَ لَهْلَكُوا
جَمِيعاً ، وَلَوْ أَنَّهُمْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ لَنَجَّوْا جَمِيعاً .

وليس معنى هذا أن يقومَ كُلُّ إنسانٍ بِتَطْبِيقِ الْعُقُوبَةِ ، فهذا
خاص بوليِّ الأمر ، ولكن لعامة مأمُورين أن يستخدموا
اللسانَ والقلبَ (١) في استنكار الفِئَةِ التي تحدث .

وَكُلُّ وَاحِدٍ مِّنَّا مُطَالِبٌ بِأَنْ يَضْرِبَ عَلَى يَدِ مَنْ هُوَ تَحْتَ
وِلَايَتِهِ ؛ فَالْأَبُّ لَهُ زَوْجَتُهُ وَأَوْلَادُهُ ، وَرِئِيسُ الْمَصْلَحَةِ لَهُ مَنْ
يَعْمَلُونَ تَحْتَ رِئَاسَتِهِ وَالْحَاكِمُ لَهُ الْعُمَمِيُّ .

وَلَوْ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِّنَّا فَعَلَ هَذَا فِي يَطَاقِهِ مَا وَجَدَ فُسَادًا ،
فَالْمُجْتَمَعُ مَكُونٌ مِنْ أَسْرِ ، فَإِذَا مَا مَعَ رَبِّ الْأُسْرَةِ الْفُسَادَ فِيهَا
اتَّجَمَّ الْمُجْتَمَعُ كُلُّهُ لِلصَّلَاحِ .

(١) روى اسنائي في المجتبى [٥٠٠٨/١١١/٨] عن أبي هريرة
رضي الله تعالى عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « مَنْ رَأَى
مَكْرًا فَبَيَّغِرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ
فَبِقَلْبِهِ وَدَلَّكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ » وَقَالَ الْأَلْبَانِيُّ : صَحِيحٌ .

وَكُلُّ عَمَلٍ لَهُ رَئِيسٌ مَسْئُولٌ عَنْهُ ، لَوْ مَنَعَ الرَّئِيسُ فَسَادَ
لَا مَنَعَ الْفَسَادُ فِي الْمَجْتَمَعِ وَبَقِيَ بَعْدَ ذَلِكَ الْأَمْرُ الْعَامُّ لِلْحَاكِمِ .
وفى الحديث : « كللكم راع وكللكم مسئول عن رعيته » ^(١) .



(١) جزء من حديث أخرج البخاري [٨٩٣] عن عبد الله بن
عمر رضى الله تعالى عنهما .

قال ابن حجر فى الفتح : فإن قيل قوله . « كللكم راع » ليعم
جميع الناس فيدخل فيه المرعى أيضاً ، فأجواب : أنه مرعى
باعتبار « راع » ، حتى ولو لم يكن له أحد كان راعياً لجوارحه
وحواسه ، لأنه يجب عليه أن يقوم بحق الله وحق عباده .
فتح البارى [٣٨١/٢] .

إِذَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ رَزَقَهُ الْإِسْتِقَامَةَ

لو عقل الناس لعرفوا أن تَزِيْرِيْتِ اِقِيْمِ يَفُوْقُ تَزِيْرِيْتِ الْمَالِ
وذلك لأنَّ الْقِيَمَ تَجْعَلُ الْمَالُ خَادِمًا لِلْإِنْسَانِ لَا سَيِّدًا لَهُ .

والاستقامة الإيمانية تُوفِّرُ لِلْإِنْسَانِ مِنَ الْكَرَامَةِ فَوْقَ مَا يَتَصَوَّرُ
أحد . إِنَّ أَحَدًا مِمَّا لَمْ يَرَ اسْتِقَامَةً تُكَلِّفُ مَالًا إِنَّمَا الَّذِي يَكْلُفُ
لِمَالٍ هُوَ الْإِنْحِرَافُ .

إِنَّ الْإِنْحِرَافَاتِ هِيَ بِالْوَعَاتِ لِلْمَالِ ، أَمَا الْإِسْتِقَامَةُ فَلَا
تُكَلِّفُ شَيْئًا وَتُوفِّرُ لِلْإِنْسَانِ الْخَيْرَ وَالْمَالَ (١) .

(١) هَالِ اللَّهُ نَعَالِي : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ كَابَ مَعَكَ وَلَا

تَطْعَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [هود : ١١٢]

قال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ الخطاب
للنبي ﷺ ولغيره .

وقيل : له والمراد أمته ؛ قاله السدي .

وقيل : « استقم » اطلب الإقامة على الدين من الله واسأله

ذلك . فتكون السين سين السؤال ، كما تقول : أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ

أطلب العفوان منه . والاستقامة الاستمرار في جهة =

= واحدة من غير أخذ في جهة اليمين والشمال ، فاستقم على امثال أمر الله .

وفي صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال : قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحد بعده ! قال : « قل آمنت بالله ثم استقم » (١) .

وروى الدارمي أبو محمد في مسنده عن عثمان بن حاضِر الأزدي قال : دخلت على ابن عباس فقلت أوصني ! فقال : « نعم ! عليك بتقوى الله والاستقامة ، اتبع ولا تبذع » (٢) .
﴿ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ ﴾ أي استقم أنت وهم ، يريد أصحابه الذين تابوا من الشرك ومن بعده ممن اتبعه من أمته .

قال ابن عباس ما نزل على رسول الله ﷺ آية هي أشد ولا أشق من هذه الآية عليه ، ولذلك قال لأصحابه حين قالوا له : لقد أسرع إليك الشيب ! فقال : « شيبتي هود وأخواتها » (٣) .

(١) أخرجه مسلم [٦٢/٣٨] .

(٢) رواه الدارمي [١٣٩/٦٥/١] .

(٣) ذكره ابن سعد في الطبقات [٤٣٠/١] .



- وروى عن أبي عبد الرحمن السلمى قال . سمعت أبا عبد الله
السرى يقول : رأيت النبى ﷺ فى المنام فقلت : يا رسول الله !
روى عنك أنك قلت : « شيتنى هود » .
فقال : « نعم » .

فقلت له : ما الذى شئت منها ؟ فقص الأنبياء وهلاك الأمم ،
فقال : « لا ولكن قوله . ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ » .

تفسير القرطبي [١٠٧/٩]

الثبُت .. والتبَيُّن .. وعدم التسرع

يقول رب العزة تبارك وتعالى : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا صَرَيْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ أَتَى اللَّهَ عَلَىٰكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝ ﴾ .

[النساء : ٩٤] .

إنها آية جمع الله تعالى فيها بين كل المعاني ، وفيها الحكم وخيئته والمراد منه .

بدأ سبحانه الآية بدء : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ۝ ﴾ ، والخطاب بالإيمان حيثية ، الالتزام بالحكم ، إنه سبحانه لم يقل « يا أيها الناس إذا صرستم فتبينوا » ، ولكنه قال . ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا صَرَيْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا ۝ ﴾ أى : إنه سبحانه يُصَالِتُ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ بالتكليف لأنهم آمنوا به إلهاً . وما دأبوا قد آمنوا فعليهم اتباع ما يطلبه الله ؛ إذن .. حيثية كل

حكم من الأحكام أن المؤمن قد آمن بمن أصدر الحكم ، فإياك
 أيها المؤمن أن تقول : « ما العلة ؟ » أو « ما الحكمة ؟ » ،
 وذلك حتى لا تدخل بنفسك في متاهة ، ونحن نؤكد على
 هذه المسألة لأنها تطفو في أذهان الناس كثيراً ، ويسأل البعض
 عن حكمة كل شيء ، ولذلك نقول : إذا لم تؤمن بالشيء إلا
 إذا عرفت حكمته ، صرت إلى الحكمة لا إلى الأمر بالحكم .
 ونحن نرى في حياتنا الآن الذين لا يؤمنون بالله ، أو يؤمنون
 بالله ولكنهم أسرفوا على أنفسهم ، وارتكبوا الكبائر كشهادة
 الزور أو أكل الربا .. ولأخذ مثلاً شارب الخمر عندما يُحلل
 الأطباء كبده يجدّه قد تليّف ، فيقول له الطبيب : إنّ أيّ
 جرعة خمر زائدة ستسبب الوفاة ، ها يمتنع عن شرب الخمر !
 لماذا امتنع ؟ لأنه عرّف الحكمة ، فهل كان امتناعه عن الحكم
 تنفيذاً لأمر إلهي ؟ لا .. ولكن المؤمن يمتنع عن الخمر لله ،
 لأنها حُرِّمت بحكم من الله . إنّ المؤمن يُنقذ كل الأحكام
 حتى في الأشياء غير الضارة فمن الذي قال : إن الله لا يُحرّم
 إلا الشيء الضار .. ؟ إنه قد يُحرّم أمراً لتأديب الإنسان .

ونضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - إن الرجل يقول لزوجته - إياك أن تعطى ابناً بعضاً من الحلوى التى أحضرتها ، لأنه لم يفعل كذا وكذا مما أمرته به ، إنه يمنع الحلوى لا لأنها ضارة ولكنه يريد أدب الابن والتزامه . والحق سبحانه قال : ﴿ فَظَلِمَ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ [النساء : ١٦٠] إن الذى يذهب إلى تنفيذ حكم الله إنما يذهب إليه لأن الله قد أمر به ، وليس لأن حكمه الحكيم مفيدة له .

فلو ذهب إنسان إلى الحكم من أجل فائدته أو ضرره فإن الإيمان يكون ناقصاً لكن الله يُرى فى كثير من الأوقات حكمته فى كثير من الأحكام حتى يرى الإنسان وجهها من الوجوه اللانهائية لحكمة الله .. فيقول الإنسان : أنا لم أكن أعرف حكمة كذا .. ثم ينت لي الأحداث والتحليل صدق الله فيما قال : وهذا يُشجع الإنسان أن يأخذ أحكام الله وهو مسلّم بها ، فهى دليل على صحة إيمانه .

إن الحق يقول : ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ إنها الحيشة .. يا من آمنت بى إلهاً قادراً حكيماً اسمع منى ما أريدُه منك .

قوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ : الضرب كما نعرفه هو انفعال الجارحة على شىء آخر بعنف وقوة ، وكلمة ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ [النساء : ١٠١] معناها أن الحياة كلها حركة وانفعال .. ولماذا الضرب في الأرض ؟ لأن الله أودع فيها كل أقوات الخلق ^(١) . فحين يحبون أن يخرجوا خيراتها فالبشر يقومون بحزنها حتى يهيئوها ويؤموا البدور وبعد ذلك يتعهدوها بالرعى ، ومن بعد ذلك تخرج اثمار ، إن هذه عملية يسموها إثارة للأرض . إذن .. كل حركة تحتاج إلى قوة ومكافئة . وقوله سبحانه :

﴿ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَسْعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ [نمل : ٢٠] وما دامت لمسألة ضرباً في لأرض فهي تحتاج إلى عزم من الإنسان وإلى قوة ولذلك يقال : إن الأرض تحب من يهيئها بالعزق والحرث ، وكلما اشتدت حركة الإنسان في

(١) إشارة إلى قول الله تعالى ﴿ قُلْ أَيْسَرُكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ ءَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَارَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمَ ۝ ﴾ [قصص : ١٠] .

الأرض كلما أخرجت له خيراً ، والضربُ في سبيل الله هو الجهادُ ، أو لإعدادِ مقومات الجهادِ ، والحقُّ سبحانه يقولُ لنا : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال : ٦٠] والإعداد هو أمرٌ يسبقُ المعارك .. وكيف يتمُّ الإعدادُ ؟ لا بدَّ أولاً أن نقومَ بإعدادِ الأجسامِ ، والأجسامُ تحتاجُ إلى مقوماتِ الحياة ولا بدَّ أن نقومَ بإعدادِ العُدَدِ ، والعُدَدُ تحتاجُ إلى بحثٍ في عناصرِ الأرضِ وبحثٍ في اختلافاتِ الصناعاتِ ، وكلُّ عملياتِ الإعدادِ تتطلبُ من الإنسانِ البحثَ والصنعةَ ، ولذلك حاء في الحديث : « إن الله يدخلُ بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة ، صانعه ، يحتسب في صنعته الخير ، والرامي به ، ومنبله » ^(١) لماذا ؟ لأن هناك إنساناً قام بقطع الخشب وصقله الذي يتم منه صناعةُ السهمِ وهناك إنسانٌ وضعَ للسهم النبل .. وهناك من يرمى السهمَ بالقوسِ .

(١) جزء من حديث رواه أبو داود [٢٥١٣] عن عقبة بن عامر الجهني رضي الله تعالى عنه . وضعفه الألباني في ضعيف أبو داود [٥٤٠] .

إن الحق سبحانه يريد منا أن نكون أقوياء حتى يكون الضرب منا قوياً . وقوله تعالى : ﴿ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيَّنُوا ﴾ هنا يُوجب علينا أن نعرف أن الضرب في سبيل الله لا يكون في ساعة الجهاد فقط ، ولكن في كل أحوال الحياة .. لماذا ؟ لأن كل ما لا يتأتى الواجب إلا به فهو واجب ^(١) .

إذن .. قوله تبارك وتعالى : ﴿ يَتَأْتِيكَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيَّنُوا ﴾ [النساء : ٩٤]
معناه هو : لا تأخذوا الأمور بظواهرها إلا إذا تبيّن وتأكدتم .
ولماذا التبين ؟ وذلك حتى لا يصيب المؤمنون قوماً بظلم .. ولهذا الأمر قصة .

فبعض آيات القرآن تأتي بعد قصة ما .. لقد كان هناك واحد اسمه « محلم بن جثامة » وكان بينه وبين آخر اسمه « عامر الأشحعي » إحن ، أى شيء من البغضاء ، وبعد ذلك كان « محلم » فى سرية وهى بعض من الجيّد المحدود العدد ،

(١) قاعدة فقهية مشهورة ، انظر القواعد والفوائد الأصولية لابن

البحر [ص : ٩٦ ، ٩٧] القاعدة [١٧] .

وصادف محلم بن حثامة ، عامر الأشجعي وكان « عامر » قد أسلم ، فلما ألقى السلام على « محلم » ومن معه قال « محلم » : إن « عامراً » قد تظاهر بالإسلام ليهرب مني فحمل عليه ، وقتل محلم عامراً ، وذهب إلى رسول الله ﷺ ، سأله الرسول ﷺ : « ولماذا لم تبين ؟ ألم يلق إليك بالسلام ؟ .. كيف تقول له إنك تقول : « السلام عليكم » لتنقذ نفسك من القتل ؟

وقال الرواة : فلما مات « محلم » ودفن لفظته الأرض مرة بعد أخرى .

وكما كانت تأتي أية مخالفة لنواميس الدنيا المفهومة للناس .. كان رسول الله ﷺ يحرص ألا يفتن الناس في هذه الآيات فيصحح لهم ويرشدهم إلى ما فيه صالحهم .

ومثال ذلك : عندما مات إبراهيم بن النبي ﷺ ، حدث أن انكسفت الشمس ، فقال الناس : انكسفت الشمس من أجل ابن رسول الله ﷺ ، ولكن لأن المسألة مسألة عقائد ، فقد قال الرسول ﷺ : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله

لا يخسفان حياةٍ أحدٍ أو موته » ^(١) لقد قالوا ذلك تكريماً
لرسول الله وابنه إبراهيم ولكن الرسول يريد أن يُصحح للناس
مفاهيمهم وعقائدهم .

وعندما لفظت الأرض « محمداً » وحتى لا يفتن أحدٌ أو
يقول : إن هناك كفاراً كثيرين قد دُفِنوا ولم يُلفطوا .

لم يسكت الرسول صلى الله عليه وسلم على ذلك حتى لا
تحدث هزة ولو بسيطة في جزئية ، ويقول الناس إن أبا جهل
في حالٍ لا بأس به وكذلك الوليد بن المغيرة فهما لم تلفطهما
الأرض كما لفظت : محمداً .

لكن الرسول أوقف مثل هذه الأمور قبل أن تساور أحداً ،
وقبل أن يستغلها الشيطان لزعزعة لإيمان في نفوس المؤمنين ،
فقال : « أما الأرض فقد قلت من هو شرُّ من محمداً ولكن الله
أراد أن يريكُم آية في قتل المؤمن » وفيه نزل قول الله تعالى :

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى [١٠٤٤] ، ومسلمه
[١/٩٠١] عن عائشة رضى الله تعالى عنها .

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَمْتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَنَيِّنُوا وَلَا
نَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾ (١) .

[النساء : ٩٤] .

(١) ذكر القصة ابن الأثير في أسد الغابة [٧١/٥] عن القعقاع بن
عبد الله بن أبي حذرد ، عن أبيه قال : بعثنا رسول الله ﷺ إلى
إصم ، فخرجت في نفر من المسلمين فيهم أبو قتادة ، ومحملم بن
جثامة ، فخرجنا حتى إذا كنا بطن إصم مررنا عامر بن
الأضبط الأشجعي ، على بعير له ، فلما مرر علينا سلم علينا
بتحية الإسلام ، فأمسكنا عنه ، وحمل عليه محلم بن جثامة
فقتله لشيء كان يسه ويسه ، وأخذ بعيره ومتاعه فلما قدما
على رسول الله ﷺ أحمرناه الخبر ، فمرل فيما قرآن : ﴿ يَتَأْتِيهَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَمْتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَنَيِّنُوا وَلَا نَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى
إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾ [النساء : ٩٤] الآية .

وذكر الطبري أن محلم بن جثامة توفي في حياة النبي ﷺ فدفنوه
فلفظته الأرض مرّة بعد أخرى ، فأمر به فألقى بين جبلين وجعل
عليه حجارة ، وقال رسول الله ﷺ : « إن الأرض لتقبل من
هو شر منه ، ولكن الله أراد أن يُريكم آية في قتل المؤمن » (١) .

(١) أخرجه الطبري [١٤٠/٥، ١٤٢] وانظر تفسير ابن كثير [٣٣٨/٢] ،
والسيوطي في الدر المنثور [٢٠٠/٢] .

وعلى ذكر ذلك جاءتنى رسالة يقول فيها صاحبها : كُتِبَ
 أسمع إحدى الإذاعات وأخطأوا وقالوا : « فثبتوا » بدلا من
 « تبينوا » فى قول الحق تبارك وتعالى فى سورة الحجرات :
 ﴿ إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ بِبَلَىٰ فَتَّبَيَّنْ أَلَا تُبَيِّنُ ۖ ﴾ . [الحجرات : ٦] .
 ولكن السامع الذى أرسل الخطاب سمعها « فثبتوا » ..
 نقول له : إن هذه قراءة من القراءات ، والمعانى دائماً ملتقية ،
 فـ « تبين » معناها « اطلب البيانَ لَتَقْتَبِثَ » .

ولنا أن نعرف أن القرآن قد نزل على سبعة أحرف وكتابة
 القرن كانت بغير نقط وبغير شكل - وهذا حال غير حالنا ،
 حيث نجد الحروف قد تم تشكيلها بالفتحة والضمة والكسرة

= قال أبو عمر : وقد قيل : إن هذا ليس محمداً بن جثامة ، فإن
 محمداً نزل حمص بأخرة ، ومات بها فى أيام ابن الزبير .
 والاختلاف فى المراد بهذه الآية : كثير جداً ، قيل : نزلت فى
 المقداد ، وقيل : أسامة ، وقيل : فى محمداً . وقيل : فى غالب
 الليثى . وقيل : نزلت فى سرية ، ولم يُسمَ قائل هذا أحداً .
 وقيل غيرهم ، وكان قتله خطأ .

ونحن نعرف أن هناك حروفاً مُشْتَبِهَةً الصَّوْرَةَ فال « با » تشابه مع « التا » و « اليا » وكذلك « النون » و « التاء » و « الثاء » ولم تكن هذه النقط موجودة ، ولم تكن هذه العلامات موجودة قبل الحجاج بن يوسف الثقفي ، وكانوا يقرأون بِمَلَكَةِ الْعَرِيَّةِ .. ولذلك إن لم يُصَبِّ نص الكلمة فهو لا يبعدُ عن معناها . ومثال ذلك « فتبينوا » إنها مكونة من الـ « فاء » ولم يحدث فيها خلاف وكذلك « التاء » وبقية الحروف هي الباء والياء والنون .. وكل واحدة من هذه الأحرف تصلح أن نجعلها « تثبتوا » بوضع النقاط أو نجعلها « تسيوا » . إنه خلافٌ في التَّحْقِيقِ .. ولو حذفنا النقط لقرأناها على أكثر من صورة .. إما على المعنى الصحيح أو المعنى القريب من المعنى الصحيح .

ولذلك عندما جاءوا لواحد لم يكن يحفظ القرآن وأحضروا له مصحفاً ليقرأ ما فيه فقال : « صنعة الله ومن أحسن من الله صنعة » ولم يحدث خلافٌ في « الصاد »

ولكن حدث خلاف في معنى الآية ، ف « الباء » صالحة لتكون « با » أو « نا » وكذلك « العين » يمكن أن تكون « عياً » لذلك فالآية في قراءة حفص : ﴿ صَبَّغَهُ اللَّهُ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صَبَّغَهُ ﴾ [البقرة - ١٣٨] وعندما قرأها الإنسان الذى لا يجيد قراءة القرآن على طريقة حفص قال : « صنعة الله ومن أحسن من الله صنعة » إل المعنى واحد ، فهو وإن لم يقع عليها فقد وقع قريباً منها لماذا ؟ لأن الملكة عريضة وعندما ينطق سيأتى بالسباق الذى يأتى بالمعنى .

وكذلك من قرأ قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ﴾ [الأعراف - ٥٦] هذه هي قراءة حفص ، ولكن الذى لم يحفظ القرآن قبل تفيط حروفه قرأها : « قال عذابى أصيب به من أساء » صحيح أن كلمة « أساء » فيها ملحظ آخر للمعنى ؛ لكن القراءة الأخرى لم تنغد بالمعنى وعنى ذلك فكلمة « فتيئوا » تُقرأ مرة « فتيئوا » ومرة تُقرأ فتيئوا هي الآيتين .. سواء فى هذه الآية أو فى الآية التى يقول

فيها الحق : ﴿ إِن جَاءَكُم فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَسَبِّتُوا ﴾ [الحجرات : ٦] .
 والتبين يقتضى الذكاء والفطنة حتى يتعرف الإنسان من
 إيمان من ألقى إليه السلام ، هل يصلّى ؟ هل ، هل .. والحق
 يقول : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَن أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ
 مُؤْمِنًا ﴾ [النساء . ٩٤] ، إن الذى يكفى المؤمن شر الظن إذا ما
 قال أحد : السلام عليكم ، هنا يجب أن يفطن المسلم إلى أن
 أمر القلوب لا يعلمه إلا الله تعالى وألا يأخذ إساناً بالشبهات .
 ولذلك يجد النبي يحرم الأمر مع أسامة بن زيد الذى قتل
 واحداً بعد أن أعلن هذا الواحد إسلامه بقوله لا إله إلا الله ،
 وظن أسامة أنه قالها خوفاً من السلاح ، فقال له النبي ﷺ « أفلا
 شققت عن قلبه » ^(١) إن أسامة رضى الله تعالى عنه قال
 للرسول ﷺ : لقد قال الشهادة ليحمنى نفسه من الموت ،
 فكانت الإجابة : هل شققت عن قلبه فعزمت أن قوله :
 « لا إله إلا الله » كان خوفاً من القتل ؟!

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم [١٥٨/٩٦] عن أسامة بن
 زيد رضى الله تعالى عنهما .

إن لقول : ﴿ لا إله إلا الله ﴾ حُرمة ، فساعة يقولها الإنسان تعصم دمه ، فلا يجوز قتله ، لقد قال أهل العلم : إن نَجاة ألف كافر خيرٌ من أخذ مؤمن واحد .

وقوله تعالى : ﴿ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ ﴾ (النساء . ٩٤) .
يعنى : أعلن إيمانه حتى ولو كان مستسلماً تحت بريق السيف ، إنه ليس من حق أحد أن يُلقى لاتهم بعدم الإيمان على من جاء مسلماً أو يقول بتحية الإسلام .

وكلمة : ﴿ عَرَضٌ ﴾ إذا ما سَمِعناها ، فلنَعْلَم أن معناها اللغوى : هى كل ما يَعْرضُ ويزولُ وليس له دوامٌ أو استقرار أو ثبات ، ونحن - البشر - أعراضٌ ؛ لأنه ليس لنا دوامٌ أبداً .
ويُقَالُ إن الإنسانَ عَرَضٌ إذا ما قاس الواحدُ ما نفسه بالنسبة للكون ، لأن الكونَ لا يتمُّ بناؤه على الإنسان بل إنَّ الكونَ كله الذى نراه هو عرض لأنه سيأتى عليه يوم ويزول .
إذن .. فالعرض بالنسبة لكل شىء بحاجة ، والعرض بالنسبة للإنسان أن الواحد منا قد يرى نفسه صحيحاً أو سقيماً ، هنا تكون الصحة عرضاً وكذلك المرض ، وكذلك السمنة

والنحافة ، ولون البشرة إذا ما تعرض للشمس يتغير من أبيض إلى أسمر . وكذلك الغنى والفقر ، وكل شيء يمكن أن يذهب في الإنسان ويأتي فهو عرض بالنسبة للإنسان ، ويكون الإنسان جوهرًا بالنسبة له ، فإذا قسا الإنسان إلى ثابت عنه ، فالإنسان عرض ، فعندما نقيس الإنسان بيناية يكون عرضاً ، لأن البناية ستظل والإنسان سيذهب .

وعندما نقيس الدنيا مجدها عرضاً ، يقول تعالى : ﴿ تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [النساء : ٩٤] وعرض الحياة الدنيا ها هو أن يطمع المقاتل فيما يملكه الذي يبقى السلام ، وقد يكون عرض الحياة الدنيا هنا هو عزة نفس الإنسان عندما ينتقم من إنسان بينه وبينه إحن أو بغضاء ، وعندما نسمع كلمة : ﴿ عَرَضٌ ﴾ وهذا العرض في الحياة الدنيا ، نفهم أن ذلك عرض فيما لا قيمة له ، ولذلك نجد الشاعر يعبر عن مشاعر الإنسان حينما يحزن لفقدان شيء كان عنده ، وينسى هذا الإنسان أنه هو نفسه معرض للموت فيقول :

نفسى لتى تملك الأشياء ذهبة فكيف آسى على شىء لها ذهباً
وكذلك : ﴿ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا ﴾ ، نحن نفهم كلمة « دنيا »
على أساس الاشتقاق « عوا » وعلى ذلك يكون مقبل « الدنيا »
هو « العليا » .

ومن يرغب فى . ﴿ عَرَضُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا ﴾ فعليه أن
يملك الذكاء والحكمة والفطنة ، فلا يجب أن يأخذ عرض
من سيقته ، ولماذا لا يستخدم البصيرة الإيمانية ويأخذ الحياة
الدنيا ممن خلقها ؟

إن لعاقل لو أراد الحياة الدنيا وسأخذها من خالق الحياة كلها
ومادتها ، ولا يأخذها من إنسان مثله .. لأن الإنسان لا يملك
الحياة الدنيا بدليل أنه معرض للقتل .

﴿ تَتَنَفَّوْنَ عَرْضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مِغَادِمُكُمْ
كَثِيرَةٌ ﴾ [النساء ٩٤] والحق سبحانه وتعالى ساعة يحاطب
نفس البشرية التى خلقها فهو سبحانه يعلم تعاقبها بالأشياء
التي تنفعها أو تعطيها اللذة حتى لو كانت مؤقتة ، مثل ذلك :
الإنسان يكون سعيداً إذا ما تناول عداؤه ، ويكون سعيداً أكثر

إذا امتلك الغداء والعشاء ، ويكون أكثر سعادة عندما يمتلك قوته لمدة شهر أو عام ، ويكون أكثر إشراقاً بالسعادة عندما يمتلك أرضاً يأخذ منها الرزق ، لنفسه وكذلك أولاده من بعده .

إذن .. فالإنسان يحب الحياة لنفسه ويحب امتداد حياته في غيره ، ولذلك يجد الإنسان يحزن عندما لا يكون عنده أولاد ، لأنه يعرف أنه ميت لا محالة ، لذلك يتمنى أن تكون حياته موصولة في ابنه ، وإن جاء لابنه ابن وصار للإنسان حفيد فالإنسان يسعد أكثر لأن ذكره سيكون في حيلين ، هنا نقول لمثل هذا الإنسان . لتفرض إنك ستحيي ألف حيل ، لكن ماذا عن حالتك في الآخرة ؟ ليس أمامك إلا أن تعمل صاحباً ، وتنشئ وَلَدَكَ عَلَى الصَّالِحِ حَتَّى يَدْعُو لَكَ ^(١) .

(١) أخرج مسلم [١٤/١٦٣١] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة : إلا من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » ، وأبو داود [٢٨٨٠] ، والترمذي [١٣٧٦] ، والسنائي [٢٥١/٦] ، وأحمد في المسند [٣٧٢/٢] .

ولذلك يكشف الحق سبحانه وتعالى النفس البشرية المتحولة
التي تهفو إلى المغام أمام صاحبها فيأتى بالحكم الذى يظهر
الخواطر التي تجول فى النفس البشرية ساعة سماع الحكم .
الحق سبحانه لما قضى أن يحرم دخول المشركين البيت
الحرم وقال : ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ
الْحَرَامَ بِمَدَّ عَيْنِهِمْ هَكَذَا ﴾ [التوبة : ٢٨] . فمعلوم أن
المشركين حين يدخلون البيت الحرام ، يدخلون بتجاراتهم
وأموالهم .

إذن .. فهم يذهبون إلى موسم اقتصادى يبيعون ويشتررون
البضائع ويعيش أهل الحرم من ريعها طوال العام ، وعندما
يحرم الحق دخول المشركين إلى البيت الحرام يعلم الحق أن أهل
الحرم ساعة يسمعون هذا الحكم سيتذكرون المكاسب
والبضائع والتجارة والمغام التي سيحرمون منها فيقولون فى
أنفسهم : وكيف سنعيش ؟ ولأن الامر هو الخالق سبحانه
الذى يعلم السر وأخفى فقد طمأنهم على حياتهم ، فقال
سبحانه : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ
فَضْلِهِ ﴾ [التوبة : ٢٨] .

ولذلك فلا أحد له من بعد ذلك تعليق ! ونحن هذه الأيام نمر بمثل هذا الكلام ، فعندما يقول المحبون لدين الله الغيورون على شرعه : « يجب أن نمنع الخمر ! فيقول الآخرون : وماذا نفعل في السباحة التي تأتي لنا بأموال كثيرة تنعش اقتصاد الدولة ؟ هنا نقول لهم ما قاله الحق سبحانه : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ [التوبة : ٢٨] . وقد يرزقنا الله عندما نعف عن الخمر وغيرها من المحرمات بأشياء تفوق الحسبان ، كآبار بترول جديدة أو ثروات معدنية أكثر قيمة من البترول .. إننا لن نعلم الله معاد الله - ماذا يصنع لنا ، إنه كفيل بنا ما دمنا نأخذ بأسبابه ونمتنع عن المحرمات . إن الذين يظنون أن الخمر هي عماد السباحة مخطئون .. ولتدبر قول خالقنا تبارك وتعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ .

إن قول الحق سبحانه : ﴿ تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [النساء : ٩٤] هذا القول ينطبق على أهل كل عصر

وكل زمان وتكون الإجابة على هذا القول فيما جاء من بعد
 ذلك ﴿ فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ﴾ [النساء ٩٤] ولدلتك أنا
 أحب أن يتفكر الناس دائماً في قوله سبحانه : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ
 عَيْلَةً فَسَوْفَ يُعْيِيكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ ، وكذلك قوله
 تعالى : ﴿ تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ
 مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ﴾ [النساء ٩٤] لعل آية من هذه الآيات تمس
 قلوب الرعاة أو من بيدهم الأمر فينتفتوا إلى شرع الله الذي
 يرزقنا جميعاً . كذلك أحب أن يتدبر الناس قول الحق سبحانه :
 ﴿ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ
 فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء ٩٤]
 إنها دعوة لأن يأخذ المسلمون العبرة من تاريخهم القريب
 ويتعاونوا فيما بينهم ، ويكونوا يداً على من سواهم .
 وقوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ ﴾ لقد كان
 المسلمون الأوائل قلة مُسْتَدَلَّةٌ تدارى إيمانها .. فهل سلط الله
 عليهم أحداً يجترىء على التفنيش في النوايا ؟!

إذن .. فمثلما حدث لكم قدروا لإخوانكم ﴿ كَذَلِكَ
كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ كُنتُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ . إن الله من
عليهم بأنهم صاروا أهل رفعة ، وصار المسلم يمشى عري
الجانب ^(١) ولا يجروا واحد أن يوجه إليه أى شيء .

قول الحق : ﴿ فَتَبَيَّنُوا ﴾ هنا بعد أن قالها فى صدر الآية ،
الأولى مقصود بها : ألا يقتل مسلم إنساناً ألقى السلام لمجرد
أن المسلم يفكر فى المسألة الاقتصادية ، إذن .. ﴿ فَتَبَيَّنُوا ﴾

(١) عن عدى بن حاتم رضى الله تعالى عنه قال ، قال رسول الله
ﷺ : « فوالذى نفسى بيده ليعمر لله هذا الأمر حتى تخرج
الظبية من الحيرة حتى تطوف بالبيت فى غير حور أحد » .
جرء من حديث طويل رواه أحمد فى المسند [٢٥٧/٤] .
وعنه رضى الله تعالى عنه أنه قال . كنت عند رسول الله ﷺ
فجاء رحلان يشكر أحدهما العيلة ، ويشكو الآخر قطع
السبيل ، فقال رسول الله ﷺ : « أما قطع السبيل فلا يأتى
عليك إلا قليل حتى تخرج العير من الحيرة إلى مكة بعير
خفير ... » . الحديث رواه ابن حبان فى صحيحه [٧٣٧٤]
وقال الأرنؤوط : حديث صحيح .

جاءت أولاً تمهيداً للحديث ، وها هي تأتي مرة ثانية نتيجة للحديث .

إن الحق سبحانه وتعالى حين يشرع لا يشرع عن خلاء .. ولكنه خير بكل ما يصلح النفس الإنسانية ^(١) ولا يعتقد أحد أنه سبحانه خلقنا ثم هدانا إلى الإيمان ليخزلنا في نظام الحياة ، إنه سبحانه خلقنا وأعطانا المنهج لنكون نموذجاً ليرى الناس جميعاً أن الذى يحيا في رحاب المنهج تأتبه الدنيا وهي راغمة ^(٢) .

﴿ إِنْ أَلَّهَ كَانَتْ بِمَا تَعْمَلُونَ خَيْرًا ﴾ إنه سبحانه خير مما نعمل ، كأن الحق يقول إياك أن تستر بلباقتك شيئاً وتحلع عليه شيئاً غير حقيقى ، لأن الذى تطلب منه الجزاء هو الرقيب عليك والحسيب ، يعلم سبحانه المسألة من أولها إلى آخرها .

(١) قال الله تعالى . ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ .

[الملك : ١٤٠] .

(٢) قال الله تعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ .

فالذى قتل إنساناً ألقى إليه السلام ، لم يقتله لأنه لم يسلم
ولكن لأن بينه وبين الآخر إحنا وبغضاء .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ [النساء: ١٠١]
هو تأكيد على مهمة الضرب فى الأرض ، وهو سبحانه لم
يقول : « إن ضربتم » لأن أسلوب « إن » يكون للشك عادة ،
فيقال للتلميذ : « إن ذاكرت تنجح » ، ولكن لو قلنا : « إذا
ذاكرت فسوف تنجح » فـ : « إذا » تعبر عن التأكيد ، و : « إن »
حرف ، ولكن « إذا » اسم للشرط يدل على الزمن ، وأى فعل
من الأفعال عناصره الحدث وزمن الحدث ، فإذا كان الحدث
فى زمن قبل أن تتكلم ، فهو حدث ماضٍ ، وإذا كان الحدث
يجرى ساعة الكلام فهو مضارع ، وإذا كان الحدث
سيجرى من بعد ذلك فهو مستقبل ، و « إن » لا تأتى وحدها
بشيء من عناصر الحدث ، لأنها حرف إلا فى قول « إن تفعل »
أى : الفعل .. ولكن « إذا » جاءت بعنصر الزمن لأنها ظرف
لما يستقبل منه وهى قرينة للتحقيق وكأن الحق سبحانه يقول :
إن الإيمان الذى أعلنتموه واستقر فى قلوبكم يحتاج منكم إلى

الضرب فى لأرض .. وأنا أمهد لكم أن تعرفوا أن الضرب فى الأرض هو أمر بالسببة للإيمان يجب أن يتحقق .

إن الانسياح بالدعوة الإيمانية أمر واجب ولذلك قلنا إن من شرف أمة سيدنا محمد ﷺ أنها حملت امتداد الرسالة بعد رسول الله ﷺ فلم يأت من بعد رسول الله أنبياء ، ولذلك عندما يقول رسول الله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ، حتى يأتى أمر الله وهم كذلك » ^(١) لماذا ؟ لأن العلماء ورثة الأنبياء ^(٢) ، فهم يحملون المهج ، والله قد تكفل بحفظ المهج ﴿ إِنَّا نَحْنُ

(١) أخرجه مسلم [١٩٢٠/١٧٠] عن ثوبان رضى الله تعالى عنه .

(٢) جزء من حديث رواه أبو داود [٣٦٤١] ، وابن ماجة [٢٢٣] ، والدارمى [١١٠/١/٣٤٢] وابن حبان فى صحيحه [٨٨] ، وأحمد فى المسند [١٩٦/٥] وصحيحه الألبانى فى صحيح أبو داود . كلهم عن أبى الدرداء رضى الله تعالى عنه ، وانعارة أوردها البخارى فى صحيحه فى كتاب العلم ضمن عنوان باب العلم قبل القول والعمل .

رَزَلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَمُرُّ لِحَفِظُونَ ﴿ [المبر ٩] وقال الحق سبحانه
وتعالى : ﴿ لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ
عَلَى النَّاسِ ﴾ [الحج : ٧٨] فكما أن الرسول سيشهد أنه بلغ
مَنْ عاصره منهج الله ودعوته ، وكذلك مَنْ عاصره من
اصحابه رضى الله تعالى عنهم بلغوا التابعين من بعدهم ،
وهكذا ، حتى وصلنا الأمر جلياً نقياً ، فسوف يكون مطلوباً
منا أن نبلي دعوة رسول الله ﷺ للناس ^(١) ، وبهذا أمرنا

(١) روى أبو دود [٣٦٦٠] عن زيد بن ثابت رضى الله تعالى
عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « نصر الله امرأ سمع
ما حديثاً فحفظه حتى بلغه ، حرب حامل فقه يبنى من هو أفقه
منه ، وحرب حامل فقه ليس بفقيه » . والترمذى [٢٢٥٦] ،
وابن ماجه [٢٣٠] ، وأحمد فى المسند [١٨٣/٥] ، وابن
حبان فى صحيحه [٦٧] ، [٦٨٠] ، وصحيحه الألبانى فى
صحيح أبو داود . كلهم عن زيد بن ثابت رضى الله تعالى عنه .
وأخرج السخارى [٣٤٦١] عن عبد الله بن عمرو قال قال
رسول الله ﷺ : « تَلُّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً ، وَحَدِّثُوا عَنِّي

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى تتواصل الأجيال
ونعيش الرسالة وكأننا في عصرها الأول .



بنى إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب على متعمداً فليتبوأ
مقعده من النار » ، والترمذى [٢٦٦٩] ، وأحمد في
المسند [٢٠٢/٢] .

النهي عن السوء وسيلة النجاة

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ لِّكَ رَبِّكَزُ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ ﴿١٥١﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِزُ أَبْجَسَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَحَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ ﴿١٥٢﴾ ^(١) [الأعراف . ١١٥] قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِزُ ﴾ أى : ما ذكرهم المؤمنون به وعظا .

(١) قال ابن كثير : يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق : فرقة ارتكبت المخذور واحتالوا على اصطبياد السمك يوم السبت ، كما تقدم بيانه فى سورة البقرة . وفرقة نهت عن ذلك وأكثرت واعتزلتهم . وفرقة سكنت فلم تفعل ولم تنه ، ولكنها قالت للمُنكِرة : ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ أى . لم تنهون هؤلاء وقد علمتم أنهم قد هلكوا واستحقوا العقوبة من الله ، فلا فائدة فى نهيكهم إياهم ؟ قالت لهم المنكرة ﴿ مَعذِرَةٌ لِّكَ رَبِّكَزُ ﴾ قرأ بعضهم بالرفع ، كأنه على تقدير : هذا معلومة . =

- وقرأ آخرون بالنصب ، أى : بفعل ذلك « معدرة إلى ربكم »
 أى : فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهي عن المکر
 ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يقولون : ولعل بهذا الإنكار يتقون ما هم
 فيه وبتركوبه ، ويرجعون إلى الله تائبين ، فإذا تاب الله
 عليهم ورحمهم .

قال تعالى ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أى . فلما أبى
 الفاعلون المکر قبول النصيحة ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ
 السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أى : ارتكوا المعصية ﴿بِعَذَابٍ
 يَبِئْسَ﴾ فنصر على نجاة الماهين وهلاك الظالمين ، وسكت
 عن الساكتين . لأن الجراء من حسن العمل ، فهم لا
 يستحقون مدحاً ويمدحوا ، ولا رتكوا عطيماً فندموا ، ومع
 هذا فقد احسف الأئمة فيهم : هل كانوا من البهالكين أو من
 اللاجين على قولين ، وقال ابن عباس : ﴿وَيَذَّاقَتْ أَُمَّةٌ مِنْهُمْ
 لِمَ تَعْظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهَيِّئُكُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ هى
 قرية عبي شاطيء البحر بين مصر والمدية ، يقال لها أيلة ،
 وحرم الله عليهم اخيان يوم سبتهم ، وكانت الحيتان تأتيهم
 يوم سبتهم شُرْعًا هى ساحل البحر ، فإذا مضى يوم السبت

- لم يقدرُوا عليها ، فمضى على ذلك ما شاء الله ، ثم إن طائفة منهم أخذوا الحيتان يوم سبتهم ، فنهتهم طائفة وقالوا : تأخذونها وقد حرمها الله عليكم يوم سبتكم ؟! فلم يردادوا إلا غيًّا وعتوًّا ، وجعلت طائفة أخرى تنهاهم ، فلما طال ذلك عليهم قالت طائفة من النُّهاة : تعلمون أن هؤلاء قوم قد حق عيهم العذاب : ﴿ لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا أَلَّهَ مُهْلِكُهُمْ ﴾ وكانوا أشد غضبًا لله من الطائفة الأخرى ، فقالوا : ﴿ مَعْدِرَةٌ إِلَيْنِ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفِقُونَ ﴾ وكل قد كانوا ينهون ، فلما وقع عليهم غضب الله نجت الطائفتان اللتان قالوا : ﴿ لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا أَلَّهَ مُهْلِكُهُمْ ﴾ والذين قالوا : ﴿ مَعْدِرَةٌ إِلَيْنِ رَبِّكُمْ ﴾ ، وأهلك الله أهل معصيته الذين أخذوا الحيتان فجعلهم قردة . وقال عكرمة عن ابن عباس في الآية ، قال ما أدرى أنجما الذين قالوا : ﴿ لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا أَلَّهَ مُهْلِكُهُمْ ﴾ أم لا ؟ قال : فلم أرل به حتى عرفته أنهم قد نجوا ، فكسبى حلة . وقد قدمنا في سورة البقرة من الآثار في خبر هذه القرية ما فيه مقنع وكفاية . والله الحمد .

القول الثاني : أن الساكتين كانوا مع الهالكين .

وقوله تعالى : ﴿ أَتَجِدْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ الشُّوْرِ ﴾ يدل على أن النجاة هنا بفرقة الواعظة ثم جاء العذاب للذين ظلموا وعصوا ولكن ما هو مصير الفرقة الثالثة التي قالت : ما لنا ومالهم ؟

إن هذه الفئة التي يثمت من طول الوعظ وعدم الاستجابة هم أيضاً من الواعظين لأنهم حين يقولون إن الله مهلك هؤلاء الظالمين ومعذبهم يكون هذا وعظاً وتخويفاً لكل الحاضرين مما ينتظرهم من العذاب ، وسوء المصير نتيجة لظلمهم .

إذن .. قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَتَجِدْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ الشُّوْرِ ﴾ وهم الفئة التي قامت بالدعوة ويثمت

= وقوله تعالى ﴿ وَأَحَدَنَا الَّذِينَ طَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ ﴾ فيه دلالة بامفهوم على أن الذين بقوا نجوا و ﴿ بَئِيسٍ ﴾ فيه قراءات كثيرة . ومعناه في قول مجاهد : الشديد . وفي رواية : أليم . وقال قتادة : موجه . والكل متقارب . والله أعلم .

عمدة التفسير [٢٣٨ ٢٢٧/٥]

من استجابة العاصين لربهم ، أما الذين ظلموا فآخذهم الله ﴿ يَعْذَابُ يَعْيسٍ ﴾ أى : عذاب شديد ، لأن كلمة الباء والهمزة والسين تدل على الشدة ، وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ [الحديد . ٢٥]
أى : شدة .

وقوله تعالى ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ : تعنى أن المسألة لم تكن تعنتا من الله سبحانه وتعالى ولكنها كانت بسبب ظلمهم وفسقهم ومخالفتهم لمنهج الله تعالى .



النهي عن تزكية النفس

يقول الحق عز وجل : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ
اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء : ٤٩] والتزكية
كما نعرفها هي التطهير والنماء ومنها أخذت كلمة « الزكاة »
والتطهير يزيل الأقدار ، والنماء يُربى المادة فتتمو .
إذن .. فالتزكية تعنى عدم وجود أقدار . ووجود النماء يأتي
بعد التطهير ، فلا نأتي لقدر ونطالب بنموه لأنه إن نما فهو ينمو
بقدارته .

إذن .. لا بد له إذا أراد أن ينمو من الطهر . لذلك فإن درء
المفسدة مقدم دائماً على جلب المصلحة ^(١) .
قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ ﴾ ماذا قالوا
تزكية لأنفسهم ؟

لقد قالوا : ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّونُهُ ﴾ [مائدة : ١٨] وقالوا : ﴿ لَن
يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى ﴾ [البقرة : ١١١]

(١) قاعدة فقهية مشهورة .

إنهم يقومون بتزكية أنفسهم والإنسان منهى أن يُزكى نفسه .
والتزكية تقتضى تطهير النفس من العيب وعطاء الإنسان
لنفسه نماءً ونظافة فماذا إن كانت التزكية حقاً ، أُمْنوع أن
يزكى الإنسان نفسه ؟

إن التزكية التى قاموا بها لأنفسهم كأهل كتاب كانت
تزكيةً باطلة فليس حقيقى أن لله أبناء .. تعالى الله عن ذلك
علواً كبيراً ، وليس حقيقياً أن الجنة لن يدخلها إلا هم .
إذن .. الممنوع هو أن يزكى الإنسان نفسه بالباطل لكن إذا
كانت التزكية بحق وتطلب فى وقت من الأوقات التى لا
تحتمل التجربة مثال ذلك عندما تتركب جماعة زورقاً ويكون
القائد الذى يجدف ، أى : يمسك الشراع ، متوسط الموهبة ثم
قامت عاصفة شديدة ، لا يقوى متوسط الموهبة على القيادة
معها ، فإذا كان هناك إنسان بحيد فى قيادة الزوارق أثناء
العواصف عليه أن يتقدم ويقول لمتوسط الموهبة : ابتعد عن
القيادة فأنا أكثر فهماً منك ويزحزحه ويمسك القيادة بدلاً منه ..
هذه تزكية للنفس وهى مطلوبة لأن الوقت ليس وقت تجربة ،

ثم هو يزكى نفسه بحق ، كما إن العمل الذى هو مقبل عليه سيفضحه إن لم تستقر المسائل على حسن قيادة .

إذن .. هناك فرق بين التزكية بالباطل وبين التزكية باحق ومن أوضح أمثلة التزكية باحق حينما زكى سيدنا يوسف عليه السلام نفسه لعزير مصر ، وقال له : ﴿ أَتَجْعَلُنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكَ ﴾ [يوسف : ٥٥] لأن الوقت ليس وقت تجربة وكذلك سيدنا محمد ﷺ عند قسمته لغنائم حنين حينما سأله أحد المنافقين أن يعدل فقال ﷺ : « ومن يعدل إذا لم أكن أعديل » (١) .

○ ○ ○

(١) أخرج مسلم [١٠٦٣/١٤٢] عن حابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنهما ، قال : أتى رجل رسول الله ﷺ بالجرانة منصرفة من حنين ، وفى ثوب بلال فصة ، ورسول الله ﷺ يقبض منها ، يعطى الناس ، فقال : يا محمد اعدل . قال : « ويلك ومن يعدل إذا لم أكن أعديل ؟ لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعديل ... » . وأخرج البخارى [٣٦١٠] عن أبى سعيد الخدرى بسحوه ، وكذلك مسلم [١٠٦٤/١٤٣] .

الرحمة واللين في الشَّح

قال الله تعالى : ﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْمُرْ بِهِ لَكُنَّا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران ١٥٩] . ما في قول الحق : ﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْمُرْ بِهِ لَكُنَّا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ يدل على أنها أمر لا يمكن أن يدرك كنهه ، فدخل تحت الإيهام بـ « ما » لأن الشيء إذا كان لطيفاً دقيقاً فإن الإدراك يقصر عنه .

هذه الآية نزلت عقب أحداث حدثت في غزوة أحد منها : الحدث الأول : أن الرسول ﷺ رأى ألا يخرج إلى القوم بل يظل في المدينة فأشار عليه المحبون للشهادة والمحبون للقتال والمحبون للتعويض عما فاتهم من شرف القتال في بذل أن يخرج إليهم فنزل رسول الله ﷺ على رأيهم ولبس « لأمتة » فلما أحسوا بأنهم أشاروا على رسول الله بما يخالف ما كان قد بدا منه ، تراجعوا وقالوا : يا رسول الله إن رأيت ألا تخرج

فلا تخرج فقال ﷺ : « ما ينبغي لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل » (١) فما دام قد استعد للحرب فقد انتهت المسألة .

(١) ذكره ابن هشام فى السيرة [٨٠٧/٣] .

وروى البيهقى فى السنن الكبرى [١٣٢٨٢] ، ودلائل النبوة [٢٠٥، ٢٠٤/٣] عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : تنفل رسول الله ﷺ ميعه دا العقار يوم بدر . قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : وهو الذى رأى فيه الرؤيا يوم أحد وذلك أن رسول الله ﷺ لما جاءه المشركون يوم أحد كان رآيه أن يقيم بالمدينة فيقاتلهم فيها ، فقال له ناس لم يكونوا شهدوا بدرأ : تخرج بنا يا رسول الله إليهم نقاتلهم بأحد ورحوا أن يصيبوا من الفصيلة ما أصاب أهل بدر ، فما رآوا به حتى لبس أداته ثم بدموا ، وقالوا : يا رسول الله أقم فالرأى رأيك ، فقال رسول الله ﷺ : « ما ينبغي لنبى أن يضع أداته بعد أن بسسها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه » .

قال : وكان مما قال لهم رسول الله ﷺ يومئذ قبل أن يلبس الأداة : « إني رأيت أنى فى درع حصينة فأولتها المدينة وإنى مردف كبشاً فأولته كبش الكنية ، ورأيت أن سيفى ذا الفقر فل فأولته فلا فيكم ، ورأيت بقرأ تدبح فقمر والله حير =

الحدث الثاني : تخلف عبد الله ابن أبي رأس المنافقين بثلاث
الجيش .

الحدث الثالث : مخالفة الرماة عن أمره عليه السلام وتركوا
مواقعهم رغم أنه حذرهم من ذلك ، وقال : « إن رأيتمونا
تخططنا الطير فلا تبرحوا أما كنكم ، وإن رأيتمونا هزمنا القوم

فبقر والله خير » .

رواه الحاكم في المستدرک [١٢٩/٢] وصححه ، ووافقه الذهبي .
وعن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما قال : استشار
رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس يوم أحد فقال : إني رأيت فيما يرى
النائم كأنني في درع حصينة وكأن بقرا تُنحر وتباع ففسرت
الدرع : المدينة ، والبقر : بقرأ والله خير ، فلو قاتلتموهم في
السكك فرماهم النساء من فوق الحيطان ، قالوا : فیدخلون
علينا المدينة ؟ ما دخلت علينا قط ولكن مخرج إليهم . قال :
فشأبكم إذا قال ثم ندموا . قالوا رددنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم
رأيه ، هأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله : رأيك . فقال : « ما
كان لنبي أن يلبس لأمة ثم يحلها حتى يقاتل » .
السنن الكبرى للبيهقي [٣٨٩/٤] [٧٦٤٧/٤] .

وأوطأناهم ، فلا تبرحوا أما كنكم ، ولكنهم خالفوا عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) .

الحدث الرابع : فرارهم حينما قيل : قُتل رسول الله ﷺ .

الحدث الخامس : أنه حين كان يدعوهم صلى الله عليه عليه

وسلم فروا لا يلوون على شيء .

كل هذه الأحداث كادت تترك في نفسه ﷺ أثراً فنزل

قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ ﴾

معنى ذلك أن الله يقول لرسوله أنا طبعتك على رحمة تتسع

لكل هذه الهفوات ، والرحمة منى ، وما دامت الرحمة موهوبة

منى فلا بد أنى جعلت فيها طاقة تتحمل كل مخالفة من أمتك

ومن أتباعك ولا تظن يا محمد إنك أرسلت إلى ملائكة إنما

أرسلت إلى بشر ، والبشر خطأون ، إن البشر من أهل الأعيار

فلهذا اجعل المسألة درساً ، وأنا فطرتك على لرحمة وأنت

بذاتك طلست منى كثيراً لأمتك ، فكلما هموا بك بسوء أقول

لك أطبق عليهم الأخشين فتقول . « بل أرجو أن يخرج من

(١) أخرجه البخارى [٢٨٧٤] وأحمد فى المسند [٢٩٣/٤] من

حديث البراء بن عازب رضى الله تعالى عنه .

أصلاً بهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً ، ^(١) وكلما يأتي أمر فأنت يا محمد رحيم بهم وأنا أطلب منك بالرحمة التي أودعتها في قلبك ، بهذه الرحمة لنت لهم يا محمد ، وبهذه الرحمة التفوا حولك ، التفوا حولك لأدبك الجسم ، لتواضعك الوفير ، لحسن خلقك ، لبسمتك الحاية ، لظطرتك المواسية ، لتقديرك لظرف كل واحد حتى إنك إذا وضع أى واحد منهم يده فى يدك لم تسحب يدك أنت حتى يسحبها هو ^(٢) ، هذا هو الخلق العالى وكل ذلك أنا أجعله حيثية لتتازل عن كل هذه الهفوات وليسعها خلقك ، وليسعها حلمك لأنك فى دور التربية والتأديب .

والتربية والتأديب لا تقتضى أن تغضب لأى بادرة تدر منهم وإلا ما كنت مريئاً ومؤدباً ﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَيْتَ لَهُمْ وَكَلَوْا

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى [٣٢٣١] ، ومسلم [١٧٩٥/١١١] عن عائشة رضى الله تعالى عنها .

(٢) تأسيساً بالنبي ﷺ فى الحديث الذى رواه أبو داود [٤٧٩٤] عن أنس رضى الله عنه ؛ وفيه : « .. وما رأيت رجلاً أخذ بيده فترك يده ، حتى يكون الرجل هو الذى يدع يده » . وحسنه الألبانى .

كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَا تَنْفَعُوكُمْ مِنْ حَوْلِكُمْ ﴿١٥٩﴾ [آل عمران : ١٥٩]
لماذا ؟ لأنك يا محمد تخرجهم عما ألفوا من أمور الجاهلية ،
والذى يُخرج واحداً عما ألف لا يصح أن يجمع عليه إخراجة
عما اعتاد والأسلوب الخشن الفظ ، لأنه فى حاجة إلى التودد
والرحمة ، لا تجمع يا محمد عليهم الأمرين .

ولذلك يقولون فى الذى ينصح إنساناً يقولون له : إن النصح
ثقيل لأن النصح معناه تجريم الفعل فى المنصوح ، فتقول
للمنصوح وأنت فى موقف الناصح : لا تفعل هذا الأمر ، وهذا
معناه أن ذلك الفعل ردىء ، وما دمت وأنت ناصح لآخر تجرم
له فعلاً فلا تجمع عليه أمرين : الأول : أنك تقبح فعله ، والثانى :
أنك تخرجه مما ألف بأسلوب يكرهه .

ونحن نستعمل هذا الأسلوب فى ذوات أنفسنا حين نجد
مرضاً يحتاج إلى العلاج بالدواء المر نغلف العلاج المر بطبقة
حلوة الطعم بحيث يمر من منطقة الذوق بلا ألم وحتى ينزل
إلى المعدة فلا تحس بهذه المرارة ، لأن الاحساس كله فى الفم
بالنسبة للمواد المتأولة من خلاله لذلك نغلف الدواء بطبقة

ناعمة الملمس وحلوة الطعم غالباً حتى يمر من منطقة الفم والبلعوم التي فيها الإحساس بالتذوق إلى المعدة حيث لا إحساس بالمرارة .. فإذا كنا نفعل ذلك في الأمور المادية فلا بد أن نفعل مثل ذلك في الأمور المعنوية ، لماذا ؟ لأن النصيح ثقيل ، فلا تجعله جديلاً ، ولا ترسله جبلاً .

إن الحقائق مُرّة فاستعمروا لها خِفة البيان ، إن خفة البيان هي التي تؤدي الغرض بدون استتارة وبدون إثارة وبلغظ يحمل على التقبل ، إن المعنى الذي تريد أن توصّله واحد ولكن المهم هو اختيار الأسلوب .. مثال ذلك ، أن رجلاً رأى رؤيا تلخص في أن أسنانه كلها وقعت ، فحاء لمفسر الأحلام وقص عليه ما رأى فقال له المفسر : إن أهلك جميعاً يموتون ، لقد ألقى في وجهه بقدر هائل من الألم البالغ باختيار هذه الكلمات التي تعبر بخشونة عن معنى ما .

ثم ذهب نفس الرجل إلى مفسر أحلام آخر ، فقال المفسر : ستكون أطولَ أهن بيتك عمراً . لقد اختار المفسر الثاني أسلوباً راقياً في نقل الحقيقة الواحدة فما دام صاحب الرؤيا هو أطولُ

أهل بيته عمراً فمعنى ذلك أنهم سيموتون قبله . إنه معنى واحد ولكن بأسلوبين مختلفين .

وقول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْتَفَضُوا

مِنْ حَوْلِكَ ﴾ . [آل عمران : ١٥٩] .

إذن .. فبالرحمة لنت لهم يا رسول الله ، وبلين القلب اتبعوك وَالْفُوكُ وَأحبوك ، وعندما نقف عند كلمة : ﴿ فَظًّا ﴾ فإننا نجد أن الفظ هو ماء الكرش فالإبل محفزة بقدرة الله سبحانه وتعالى أن تشرب من الماء ما تحتاج إليه لمدة طويلة ، وتخزن من هذا الماء في كرشها ، حتى عندما تعطش ولا تجد ماء فإنها تأخذ من هذا الماء المخزون ليرويها ، ونحن نعرف أنه في إحدى الغزوات ذبح المقاتلون بعضاً من الإبل ليأخذوا الماء من كرشها .

ومياه الكرش هذه عادة ما تكون : غير جيدة الطعم ، وآسنة قليلاً ، وشرب مثل هذا النوع من الماء يولد غضاضة في النفس لذلك سمي بالمظاظه لخشونة هذا النوع من المياه ، وأطلق العرب كلمة فظاظه على خشونة القول ، وغلظ القلب هو الذي تنشأ منه خشونة الألفاظ .

قوله سبحانه : ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] إن هذا القول مقدمة توضح للمرسول الكريم ﷺ ما أراه الله له وكأن الحق يقول : إنها الرحمة التي طُبعت عليها مِنِّي وظهر أثر ذلك في إقبالهم عليك وحيثهم لك ، لأنك لو كنت على نقيض ذلك لما وجدت أحداً حولك .. إذن فالشواهد تثبت أن هذه الرحمة وهذا اللين طبعة الحق تبارك وتعالى في خلقِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفطره عليه ^(١) .



-
- (١) ولقد امتدحه رب العزة سبحانه في القرآن العظيم فقال : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [الفلم : ٤] .
 ووصفه سبحانه وتعالى بأنه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا رُؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ .
 [التوبة : ١٢٨] .

الصحة بالمعروف لغير المؤمن

بعض المستشرقين حاولوا جاهدين أن يعثروا على ثغرة ينفذون منها ليفرّقوا بين المسلمين ودينهم ، وأن يروجوا لزعمهم الباطل بأن هناك تعارضاً بين آيات الكتاب الكريم . وارتدى بعضهم مشوح لعلم الحايذ ، وملتأت قلوبهم بسوء النية ، وغابّ عن عقولهم حسن الإدراك فقالوا : إن بعض الآيات القرآنية تتعارض ، والسبب الذى يجعل المسلمين يغفلون عن ذلك التعارض بزعمهم هو إنهم ينظرون إلى القرآن بقداسة ، ولولا هذه القداسة لأمكنهم اكتشاف التعارض فى آيات القرآن !!

هؤلاء المستشرقون لما قرأوا الآية الكريمة التى يقول فيها الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهَا فِي الدِّينِ مَعْرُوفٌ وَأَتَّبِعْ مَسِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ تَعَالَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتُنَبِّئُهُمْ بِمَا كُنتُمْ

تَعْمَلُونَ ﴿ [لقمان : ١٥] حاولوا بسوء القصد والنية أن يوهبوا
أذنابهم أن هناك تعارضاً بينها وبين قول الحق سبحانه : ﴿ لَا تَجِدُ
قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ
عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم
بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ
حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

[المجادلة : ٢٢] .

إن بعض المستشرقين يحاولون أن يروجوا لفكرة التعارض بين
قول الحق : ﴿ وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ [لقمان : ١٥] من
سورة لقمان وبين قوله : ﴿ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ
كَانُوا آبَاءَهُمْ ﴾ [المجادلة : ٢٢] طعناً في هذا الدين
وحسنه من عند أنفسهم .

إن الفهم الصحيح لقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى
أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبَهُمَا فِي

الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ
 فَأَنبِئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ [لقمان ١٥] هو أن الله تعالى
 يأمر الابن أن يصاحب والديه بالمعروف ، ولا يطيعهما في
 دعوتيهما له بالشرك بالله ، بل يأمره أن يتبع طريق التوحيد
 والإخلاص ، وأن مرجعهم جميعاً هو وهما إلى الله تعالى بما
 فعلوا من خير أو شر ، وأن الله سبحانه هو الذي سيحزي كل
 إنسان جزاء عمله .

ومعلوم أن الصَّحبة بالمعروف سواء مع الوالدين أو غيرهما
 أمرٌ مختلفٌ عن الودِّ بالقلب ؛ فالمعروف فعل الجوارح ، أما
 الود فهو فعل القلب .

إن الصَّحبة بالمعروف أمرٌ يصغفه الإنسانُ مع من يحبُّ ومع
 من لا يحب ، أما الودُّ فلا يصنعه الإنسانُ إلا مع من يُحب ،
 واقرأ قول الحق : ﴿ لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
 يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ
 أَنْسَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ

الْإِيمَانِ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ
حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢٠﴾ [المجادلة : ٢٢٠] . هذه
الآية الكريمة توضح أن القوم المؤمنين بالله واليوم الآخر ليس
بينهم وبين من يعادى الله ورسوله ويصد عن دينه مودة قلبية ،
ولا موالاة ، ولا نصرة ، حتى ولو كانوا من آبائهم أو إخوانهم
أو أبنائهم أو أقاربهم ، وهذا لا يمنع من معاملتهم بالمعروف ،
وإعطاء كل دى حق حقه ، فهذا شىء ، والنصرة فى الدين
والموالاة فى الله تعالى شىء آخر (١) .

إن المؤمنين لا يوالون من حادّ الله ورسوله ؛ لأن الحق ثبت
قلوبهم على الإيمان وأيدّهم بقوة مه وجعل لهم جزاء ذلك
جنات لا ينقطع فيها النعيم عنهم لأنهم أحبوا الله فأحبتهم الله ،
وهكذا نفهم الفرق بين « الصّحبة بالمعروف » وبين « ابود » .

(١) قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ
أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة : ٨] .

ثم إن الصحبة بالمعروف أمرٌ لا يتطلب الحب ، ولكن يتطلب المعاشة ، وإن المؤمن بسلوكه مع مَنْ حوله قدوةٌ تنيرُ قلوبَ الضالين إلى الهداية . فإن آمن الضالُّ فلمؤمن ثوابُ إيمانه ، وإن لم يؤمن الضالُّ فلمؤمن الثوابُ أيضًا لأنه عايش الضالَّ دون أن يتأثر بدعوة الضلال ، أو أن يحيد عن منهج الحق سبحانه حتى ولو حاءته هذه الدعوة من أبيه أو أمه أو أقاربه . إن المؤمن لا يساوم على إيمانه ، لذا فلا مودة بينه وبين من عادى الله ورسوله ، وأوضح الأمثلة على ذلك يوم بدر حينما قال عبد الرحمن بن أبي بكر رضى الله تعالى عنهما لأبيه بعد أن أسلم : « لقد رأيتك يا أباي يوم بدرٍ ولكني لريتُ غنقي عنك ، فقال له سيدنا أبو بكر رضى الله تعالى عنه : والله لو رأيتك لقتلتك ^(١) .

(١) رواه الحاكم في المستدرک [٤٧٥/٣] ولفظه . قال عبد الرحمن ابن أبي بكر لأبي بكر رضى الله تعالى عنهما : قد رأيتك يوم أحد فصفحت عنك ، فقال أبو بكر : لكني لو رأيتك لم أصفح عنك .

والذين يبحثون في فلسفة الدين يقولون إن الاثنين على حق
لأن عبد الرحمن قارن بين آبيه والأصنام ، أما سيدنا أبو بكر
فقارن بين ابنه وربه ، فوجد أن الله تعالى أعز عليه من ابنه ،
والاثنان منطقيان .

وكذلك حينما رأى سيدنا مصعب بن عمير أخاه أسيراً في
يد أحد الصحابة فقال للصحابي : اشدد على أسيرك فأمه غنية
وستفديه بمال كثير .



الرضا بالقضاء يرفعه

لا يُرفع قضاء من الله على خلقه إلا بعد أن يستسلم الخلق للقضاء ، والذين يُطيلون أمد القضاء على أنفسهم هم الذين لا يرضون به ، ولا يوجد إنسان أُجرى عليه قضاء كمرضٍ مثلاً فرضي به واعتبر ذلك ابتلاءً من الله تعالى ، فصبر بذلك واحتسب ، إلا ورفع الله تعالى عنه المرض ، بل وجزاه خير الجراء على صبره واحتسابه .. كيف ؟

إن الإنسان بالصحة يكون مع نعمة الله ، ولكنه بالمرض يكون مع الله تعالى . فقد روى أبو هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : يا ابن آدم مرضت فلم تعدني .

قال : يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟
قال : أما علمت أن عبيد فلاناً مرض فلم تغده ؟ أما علمت أنك لو عُدتته لوجدتني عنده ؟ » (١) .

(١) رواه ابن حبان في صحيحه [٧٣٩٩] وقال الأرنؤوط :
إسناده صحيح على شرط مسلم .

مَنْ إِذْنٌ يَجْرُؤُ عَلَى الزُّهْدِ فِي مَعِيَّةِ اللَّهِ ؟ إِنَّ الْمَرِيضَ عِنْدَمَا يَعْرِفُ أَنَّهُ فِي مَرَضِهِ الَّذِي يَتَأَوَّهُ مِنْهُ هُوَ فِي مَعِيَّةِ اللَّهِ لَا سِتْحِيَا أَنْ يَقُولَ : « آه » وَلِرَغْبٍ إِلَى رَبِّهِ وَمَوْلَاهُ وَحَمْدِهِ ، وَسَأَلَهُ الْعَفْوُ وَالْعَاقِبَةُ .

ولذلك إذا رأيت إنساناً طال عليه أمد القضاء ، فاعلم أنه لم يرض بما وقع له ، ولو أنه رضى لرفع القضاء .
إذن .. لا يرفع قضاء حتى تكون نفس من ابتلى به راضية ، وما دم عدم الرضا موجوداً فالناس هم الذين يطيلون على أنفسهم أمد القضاء لأنهم لا يرضون به ، فإذا قال لك إنسان إنه راضٍ بقضاء الله وأن القضاء لم يُرفع عنه ، فاعلم أنه يقول ذلك بلسانه ولا يرضى قلبه بذلك وجاء في الحديث :
« ليس لابن آدم إلا ما قُدر له »^(١) .



(١) جزء من حديث أخرجه مسلم [٤٣/٢٥٦٩] عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه .

ثمرة الرضا بقضاء الله

قال تعالى : ﴿ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنعام : ١٧] .
ما هو الضرر أولاً ؟ إن الضرر هو ما يصيب الإنسان ويخرجه عن استقامة حياته وحاله . فالإنسان عندما يعيش بغير شكوى أو مرض ويشعر بتمام العافية فهو يعرف أنه صحيح البدن ، لكن ساعة يؤلمه عضو من أعضاء جسمه فهو يضع يده عليه ويشكو ويفكر في الذهاب إلى الطبيب .

إذن .. فاستقامة الصحة بالنسبة للإنسان هي رتبة عمل كل عضو فيه بصورة لا تلفته إلى شيء . ويلفت الحق أصحاب النعم إلى شكره سبحانه ، فعندما تسير في الشارع وترى إنساناً فقد ساقه فأنت تقول « الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به كثيراً من خلقه » ^(١) لأنك سليم الساقين وهكذا تعرف أنك

(١) روى ابن ماجة [٣٨٩٢] والترمذي [٣٤٣١] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من -

لا تدرك نعمة الله في بعض منك إلا إذا رأيته مفقودة في سواك .. وهكذا تعلم أن من الآلام والآفات منبهات للنعم. وأيضاً نجد أن منغصات الحياة قد تصيب الإنسان حين يتصور أنه لم يأخذ حظه من نعم الله ، فيقول لحظتها : يا مفرج الكرب يا رب ، ولذلك حين نجد الإنسان يقول : « يا رب » ، نعرف أنه يعزع إلى الله ، ولذلك قالها الله عن الإنسان : ﴿ وَإِنَّا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا إِلَىٰ جَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [يس ١٢] وذلك يعني أن الإنسان إذا ما أصابه مكروه فهو يلجأ إلى الله ، ولا يملُ دعاء الله على كل حال سواء أكان الإنسان مضطجعاً ، أو قاعداً ، أو قائماً . وعندما يكشف الحق عنه الضر قد ينصرف عن الدعاء ويعيش رتابة النعمة ، وينسى المعظم سبحانه ، وكأنه لم يدع الله

- فَبِحَنِّهِ صَاحِبِ بَلَاءٍ فَقَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي مِمَّا ابْتَلَاكَ بِهِ وَفَضَّلَنِي عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلًا ، عوفي من ذلك البلاء كائناً ما كان ، وقال الألباني : صحيح .

سبحانه إلى كشف ما به من ضر ، وهذا هو سلوك المسرفين على أنفسهم ، إن النفس - أو الشيطان - تزين للعاصي بعد ما يكشف الله ما به من ضر ، أن الذى كشف الضر هو مهارة الطيب الذى لجأ إليه ! عافلاً عن أن مهارة الطيب هى نعمة من نعم الله تعالى ؛ أو ينسب أسباب خروجه من كربته إلى ما أتاه الله من علم أو مال ، غافلاً عن أن الله سبحانه هو واهب كل شيء ، كما فعل قارون الذى ظن أن ماله قد جاءه من تعبته وكذبه غافلاً أن الحق هو مُسبِّب كل الأسباب ، ولو كان ذلك كذلك لاستطاع قارون أن يحافظ على ذلك المال بعلمه كما ادعى (١) .

إذن .. لولا الضر ما علمنا العافية ، فالضر يُلمت الإنسان إلى نعيم الحق سبحانه وتعالى فى هذه الدنيا وذا ما رضى الإنسان وصبر فإن الله يرفع عنه الضر ، بل ويشيه عليه .

(١) إشارة إلى قول الله تعالى . ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ۖ أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَن هُوَ أَشَدُّ مِنهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ الْمُجْرِمُونَ ﴾ .

والحق سبحانه وتعالى يعطينا نماذج على مثل هذا الأمر فما هو
 سيدنا إبراهيم عليه السلام يتلقى الأمر بذبح ابنه الوحيد
 إسماعيل عليه الصلاة والسلام ، يأتيه هذا الأمر في رؤيا ،
 ورؤيا الأنبياء حق ^(١) .. إنَّ على إبراهيم أن يذبح ابنه بنفسه .
 وهذا ارتقاء في الابتلاء ولم يلتمس إبراهيم خليل الرحمن عذراً
 ليهرب من ابتلاء الله له ، لم يقل إنها مجرد رؤيا وليست وحياً
 لقد جاءه الأمر بأشق تكليف وهو دبح الابن ، ونرى عظمة
 النبوة في استقبال أوامر الحق فيقبل خليل الرحمن الأمر عن
 طيب نفس ورضا بالقضاء ، فيلهمه الله أن يُشرك ابنه
 إسماعيل في استقبال الثواب بالرضا بالقضاء ، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا
 بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَئُ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ
 فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ۚ قَالَ يَتَّبِعُ أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ
 اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الصافات ١٠٢٠] امتلاً قلتُ إسماعيل بالرضا

(١) روى الطبري في التفسير عن قتاده في تأويل قوله تعالى :
 ﴿ يَبْنَئُ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ﴾ قال : رؤيا الأنبياء
 حق ، إذا رأوا في المنام شيئاً فعلوه .

بقضاء الله ولم ينشغل بالحقد على أبيه ولم يقاوم ولم يدخل
فى معركة جدلية ، بل قال قول المؤمن الواصل بربه الراضى
بقضائه المستسلم لأمره : ﴿ يَتَابَعْتِ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ ﴾ .

لقد أخذ عليه السلام أمر الله بقبول ورضا ، ولذلك يقول
الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ [١١٧] وَتَدَيْتُهُ أَنْ
يَتَابَرَهِيْمُ ﴿ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [١١٨] إِنَّكَ
هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿ وَقَدَيْتُهُ بِذَبِيحٍ عَظِيمٍ ﴾ [الصافات] .

لقد اشترك الاثنان فى قبول قضاء الله ، واستسلم كل منهما
للأمر عن طيب خاطر ورضى ، أسلم إبراهيم كفاعل ، وأسلم
إسماعيل كمتفعل ، ورأى الله تعالى صدق كل منهما فى
استقبال أمر الله ، وهنا ردى الحق إبراهيم عليه السلام : لقد
استجبت أنت وإسماعيل إلى القضاء ، وحسبكم هذا الامثال
ولذلك يجيء إليك وإلى ابنك التخفيف وحاء الداء بذبح عظيم
القدر جعله الله منسكاً من مناسك ذرية إبراهيم والذين اموا إلى
يوم الدين ، ليس هذا فقط ، بل ومكافأة عظيمة ، قال تعالى :
﴿ وَبَشِّرْهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [الصافات . ١١٢] لقد
رفع الله عن إبراهيم القضاء وأعطاه الخير وهو ولد آخر .

إذن .. فنحن الذين نطيل على أنفسنا أمدَّ القضاءِ بعدَم قبولنا له ، لكن لو رضى الإنسان بقضاء الله واستقبله بالحمد ، لرفع عنه البلاء ، وجزاه الله عن صبره ورضاه خير الجزاء من مُجْزِيهِ قال تعالى : ﴿ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ إِخَيْرٌ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأعام : ١٧٠] إن الله يعلم أن أيّاً من عباده لا يتحمل قوة الحق في الضر ولذلك يكون الضر في هذه الحالة مجرد مس ، وكذلك الخير إنما ينال الإنسان مسّ الخير فقط فكلُّ الخير مُدْخَرٌ في الآخرة . لأن خير الدنيا إما أن يزول عن الإنسان أو يزول الإنسان عنه . إن الإنسان في الدنيا مهما ارتقى في الابتكار والاختراع فهو لم يصل إلى كلِّ الخير الذى يُوحَدُ في الآخرة ؛ دلت أن خير الدنيا يحتاج إلى تحصيلٍ وجهدٍ من البشر ، أما الخيرُ في الآخرة فهو على قدر المعطى الأعظم وهو الله سبحانه وتعالى .

إذن .. فكلُّ خيرٍ في الدنيا هو مجرد مسّ خيرٍ لأن الخير الذى يناسب جمال وكمال الله لا يزول ولا يحول ولا يتغير وهو مُدْخَرٌ للآخرة . وعلمنا أن كاشفَ الضرِّ هو الله لا أحد غيره فالمرضى لا يشفى بمجرد الذهابِ إلى الطبيب لكن

الطبيب يعالج بالمهارة الموهوبة له من الله والذي يُشفى هو الله .
 قال تعالى حكاية عن الخليل إبراهيم أنه قال : ﴿ وَإِذَا
 مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ ، إن الحق سبحانه وتعالى قد خلق
 الداء وخلق الدواء وجعل الأطباء مجرد جسور إلى الدواء ومن
 ثم إلى الشفاء لينعم على بعض عباده ببعض من المواهب التي
 خلقها الله في كونه ونحن نرى أن الطبيب المتميز يعلن دائماً
 أن الشفاء جاء معه لا به ويعترف أن الله أكرمه بأن جعل
 الشفاء يأتي على ميعاد من علاجه .

إذن .. فالحق هو الكاشف الحقيقي للضرر وهو القادر على أن
 يعطيك الخير ^(١) .

(١) أخرج مسلم [٦٩/٢٢٠٤] عن جابر رضي الله تعالى عنه
 قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لكل داء دواء
 فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله عز وجل » .
 وروى أبو داود [٣٨٥٥] عن أسامة بن شريك رضي الله
 تعالى عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 « تداووا فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له دواء غير
 داء واحد اللهم » . وصححه الألباني .

التكامل والتعاضد منة الله تعالى فى خلقه

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْخَلْقَ
الْأَرْضَ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ
إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام - ١٦٥]
واللفتة هنا هى أن الله لا يريدنا أن نكون متساوين فى المواهب
ولكنه يريدنا أن نكون متكاملين فيها لماذا ؟ لأنه إذا كان الناس
كلهم صورة مكررة لفسدت الأرض فلو أننا جميعاً أطباء أو قضاة
أو مهندسون أو فلاحون ، ما استقام الكون ولكنه رفع بعضنا
فوق بعض ، ومعنى ذلك أن بعضنا مرفوع وبعضنا مرفوع
عليه . أى : أن كل واحد فينا مرفوع من جهة ومرفوع عليه
من جهة أخرى حتى يتكاتف الناس لتكتمل الحياة ، والحياة لا
تكتمل تفضلاً ولكنها لا بد أن تكتمل بالمصالح المرتبطة بعضها
بالبعض تفضل حاجة ، فلو أننا جميعاً مثلاً من خريجي الجامعة
فلن نجد إنساناً يقبل أن ينظف الشارع ، أو يحمل القمامة

أو يقوم بإصلاح المجارى ولكن كون المسألة مرتبطة ببعضها البعض فإن هذه المسائل تأتي اضطراباً ، وهذه هي حكمة الخالق سبحانه للكون ، ولكننا لا نفهمها في كثير من الأحيان ! ولذلك فإننا مثلاً نقول على الذى لم يكمل إلا تعليمه الابتدائي ، أو الذى لم يأخذ حظاً من التعليم ، أنه فشل في حياته ولم نلتفت إلى أن هناك مهمة في الكون لا تحتاج إلا لحامل الابتدائية ، فهذا الإنسان الذى وصل إلى التعليم الابتدائي مُعَدُّ لمهمة في الكون لا يقوم بها غيره ؛ والإنسان إذا عَصَهُ الجوع أو حاجة عياله فإنه يعمل أى عمل فإذا رضى بقضاء الله تعالى وقدره فتحَّ الله تعالى عليه فوصل رزقه من عمله إلى أصعاف ررق ذلك الذى تخرج في الجامعة ، ليس هذا فقط بل يبارك الله تعالى له فيه ، ولذلك أقول دائماً « قيمة كل امرئ ما يُحسسه » وما دام يحس عمله يكون إنساناً ناجحاً في الكون ولو لم يُرض هذا النجاح بعض الناس . وهذا تظهر الحكمة في أن بعضنا مرفوع على بعض ، فكل إنسان إذا نظرت إليه وجدته مرفوعاً في شيء ومرفوعاً عليه في شيء آخر

الشيء الذى هو مرفوع فيه يستفيد منه الكون كله ، ولشيء
الذى هو مرفوع عليه يستفيد هو من غيره ، وهكذا تتكامل
المواهب وتعطى الكون الكمال والجمال الذى يجعلنا جميعاً
نستفيد من كل المواهب فينا ، فالمهندس الناجح المرفوع على
الناس فى فن الهندسة يبنى لنا جميعاً العمارات فنستفيد كلها
منه ، من يملك ومن يسكن ، وإذا احتاج هذا المهندس إلى بدلة
أنيقة يلبسها فإنه يذهب إلى ذلك الإنسان الذى رفعة الله فى
فن التفصيل فيستفيد من موهبته فى هذا الفن ليحصل هو
وكل الناس على ملابس أنيقة ، فإذا احتجنا إلى أثاث فإننا
جميعاً نذهب إلى ذلك الإنسان الذى رفعه الله فى فن النجارة
وصناعة الأثاث .

وهكذا شاءت حكمة الخالق سبحانه أن يكون كل منا
مرفوعاً فى شيء ومرفوعاً عليه فى شيء آخر ، حتى يستفيد
الكون كله من مواهب البشر جميعاً ويصبح كل واحد منا
قادراً على أن يستفيد من كل المواهب التى خلقها الله فى
الكون .

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾ [الأنعام : ١٦٥] .

إذن .. فالمسألة فيها ابتلاء واختبار ، والاختبار هنا ليس اختبار علم فالله سبحانه وتعالى لا يغيب عن علمه شيء ، ولكنه اختبار لنكون شهداء على أنفسنا تماماً كالاختبارات التي تتم في الدنيا ، فالامتحانات التي تعقد في كل أنحاء الدنيا ليس هدفها أن يتعلم الأستاذ من التلميذ ، فالأستاذ هو الذي أعطى تلاميذه العلم فلماذا يختبرهم ؟ إنه يختبرهم حتى يكون كل واحد منهم شهيداً على نفسه ، لأنه لو لم تُعقد هذه الامتحانات لادّعى كل تلميذ سواء كان فاشلاً أو فالحاً أنه يستحق النجاح مع مرتبة الشرف .

إذن .. الحكمة من الامتحانات أن يكون كل إنسان شهيداً على نفسه فإذا ادّعى أنه يعلم وأنه ذاكر يأتون له بورقة إحاطته فلا يستطيع المجادلة لأنه في هذه الحالة تكون أمامه القرائن والأدلة التي تجعله عاجزاً عن أن يحادل بالباطل ، ولذلك فإن ابتلاء الله لنا يكون اختبار إقرار علينا ، وليس اختبار علم الله

ليقول الله سبحانه وتعالى للإنسان لقد خلقتك وأعطيتك هذه
 الموهبة وميزتك بها عن كل خلقى لتكاملوا وتتفاضلوا ،
 فافرض بما قسمته لك تكن أغنى الناس (١) .



-
- (١) روى الترمذى [٢٣٠٥] عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه
 قال ؛ قال رسول الله ﷺ : « من يأخذ عنى هؤلاء الكلمات
 فيعمل بهن أو يعلم من يعمل بهن ؟ فقال أبو هريرة : فقلت :
 أما يا رسول الله ، فأخذ بيدي فعد خمساً ، وقال : « اتق
 المحارم تكن أعتد الناس ، وارص بما قسم الله لك تكن أغنى
 الناس ، وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً ، وأحب للناس ما
 تحب لنفسك تكن مسلماً ، ولا تكثر الضحك ، فإن كثرة
 الضحك تميت القلب » . وقال الألبانى : حسن .

التوكل على الله وحده

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ [الرعد ٣٠] الإنسان لا يسلم نفسه إلا لمن يثق في أنه أمين عليه ثم إنه لا يكفي بأن يكون آمياً فقط ! فقد يكون آميناً وضعيفاً لا يقدر على الحماية ، فلا بد أن يكون آمياً وقوياً ، فإذا كان الإنسان يسلم قيادة نفسه إلى واحد يرى أنه أحكم منه ، يعنى : أنه شهد لهذا الواحد بأنه أمين عليه ، وأحكم منه ، وقدر على تنفيذ مطلوبه ؛ وإلا لو كان هذا الإنسان قوياً بذاته لما وُكِّلَ أحداً .

والرسول ﷺ فى دعوته لصناديد قريش ومواجهته لهم ،لقى منهم عنثاً شديداً وخصومة فاجرة ، فاتهموه ﷺ بأشياء هم أول من يعلم أنها ليست فيه ، فاحتكم إلى الله وفوض أمره إليه ، وحول الموقف كله بينهم وبينه إلى الله تعالى ، وقال : ﴿ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ وهذه شهادة منه ﷺ

بأن الله تبارك وتعالى هو القوى ، الأمين ، والحكيم ، ولم يقل
توكلت عليه لماذا ؟ لأن هناك فرقاً بين ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ ،
وتوكلت عليه .

توكلت عليه من الممكن أن نعطف أيضاً فقول : وعلى
فلان وعلى فلان إنما : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ يعنى توكلت عليه
وحده لا أحد غيره ، ولذلك لا نقول : نعبدك يا الله ، ولكننا
نقول : ﴿ إِنَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ يعنى : نحصر العبادة فيه سبحانه
فلا تنعدها إلى غيره ، ولو أنها أخرت لجاز أن يعطف عليها .
وقوله . ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ يعنى لا توحيد
مشاكسة ، هو إله واحد يأخذ الأمر منه وحده . وتوكل عليه
وحده ، ولذلك عندما تكون هناك إدارة وفيها رئيس وهذا
الرئيس أعطى هذا صلاحية وآخر صلاحية فتقول أنا ليس لى
إلا رئيس واحد لا آخذ أوامر إلا منه ، وهذا معناه أننى لا آخذ
أوامرى من أحد غير رئيس العمل فهذا المثل يفسر معنى الآية
الكريمة . بأنه هو إله واحد لا إله غيره آخذ منه أوامرى وحده
﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ [الرعد - ٣] .

الاحتساب

يقول الحق جل جلاله : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ، أى : إن انصرفوا عنك ورفضوا الاستماع إلى منهج الله فيأياك أن تعتقد أن الله ينصرك بمن اتبعك من المؤمنين ، بل اعلم أنه يكفيك أن الله معك ، فإن أعرضوا عنك فقل أمام الناس جميعاً : ﴿ حَسْبِيَ اللَّهُ ﴾ أى : يكفيني الله .

الحق سبحانه وتعالى لم يطلب من رسوله ﷺ أن يقول هذا فى نفسه ، ولكنه طلب منه أن يعلنها أمامهم جميعاً ، لماذا ؟ ليؤكد للدنيا كلها أنه لو تخلى الخلق جميعاً عن محمد عليه الصلاة والسلام فإن رب محمد قادر على أن يبصره دون مؤازرة من الخلق ، والإعلان هنا دليل قدرة الحق سبحانه وتعالى ، هذه القدرة التى تجعل محمداً عليه الصلاة والسلام يقولها بأعلى صوته : ﴿ حَسْبِيَ اللَّهُ ﴾ لأنه لا إله إلا الله ، ولا يوجد فى كونه سبحانه قوة ولا قدرة تعلقو قوته وقدرته تبارك وتعالى .

إذن .. فلا إله إلا الله أثبتت الألوهية لله ، ونفت الألوهية عن غير الله ، فالتوحيد إيجاب وسلب ، إيجاب في أن الله وحده هو الإله ، وسلب في أنه لا إله غيره ، تماماً كما بين قطبي الكهرباء إذا لم يلتق السالب والموجب لا يسرى التيار ، ونحن لا بد لنا أن نسلب الألوهية عن غير الله ثم نثبتها لله تبارك وتعالى .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [التوبة : ١٢٩] هو نفي للألوهية عن غير الله وإثباتها لله سبحانه وتعالى ، لماذا ؟ لأن الناس ثلاثة أقسام :

- قسم : كافر يُنكر وجود الله سبحانه وتعالى .
- وقسم : مشرك ينسب الألوهية لله ولغير الله سبحانه وتعالى .
- وقسم : مؤمن بأنه لا إله إلا الله .

إذن .. فالكفار يُنكرون وجود الألوهية ، والمشركون يشبهونها لله ولغير الله ، والمؤمنون يؤكّدون أنه لا إله إلا الله ، فكأنك حين تقول : لا إله إلا هو ، تكون قد أثبتت الألوهية لله وحده ، وأثبت أنه لا شريك له ، ونفيت كل أنواع الكفر والشرك بالله تعالى .

معية الله ثمرة من ثمرات الاحتساب والتوكل

من ثمرات قول المسلم : ﴿ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ [التوبة : ١٢٩] ،
معية الله تعالى ، ومعية الله جل حلاله تتطلب مرحلتين :
المرحلة الأولى : أن نأخذ بالأسباب التي خلقها الله في
الكون وأرشد خلقه إلى الأخذ بها .

لمرحلة الثانية : إذا خذلتك الأسباب فاتجه إلى الله مُسَبِّبِ
الأسباب ، ولذلك قالوا : إذا احتاج الناس إلى الماء فعليهم أن
يدهبوا إلى البئر أولاً ، فإذا وجدوها قد حفت ذهبوا إلى نهر
أعمق منها ، فإذا وجدوها أيضاً قد حفت رفعوا أيديهم إلى
السماء طالبين من الله المطر (١) .

(١) قال الله تعالى : ﴿ اسْتَغِيثُوا رَبَّكُمْ إِذْ كَانَ عَقَرًا ۚ يُرْسِلِ
السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۚ ﴾ .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه قال : أتت

= النبي ﷺ بوالك ، فقال : « اللهم اسقنا غيثا مغيثا ، مريثا مريثا (١) ، نافعا غير ضار ، عاجلا غير آجل » (٢) . فأطبقت عليهم السماء .

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : شكا الناس إلى رسول الله ﷺ قحوط المطر ، فأمر بمشتر ، فوضع له في المصلى ، ووعد الناس يوما يخرجون فيه ، فخرج رسول الله ﷺ حين بدا حاجب الشمس ، فقعد على المنبر ، فكبر ، وحمد الله عز وجل ، ثم قال : « إنكم شكوتُم جَدْبَ دياركم ، واستخار المطر عن إبان زمانه عنكم ، وقد أمركم الله سبحانه وتعالى أن تدعوه ، ووعدكم أن يستجيب لكم » .

ثم قال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ ﴿ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، يفعل ما يريد ، اللهم أنت الله لا إله إلا أنت الغني ونحن الفقراء أنزل علينا الغيث ، واجعل ما أنزلت علينا قوة وبلاغًا إلى حين » .

(١) أى : هنيئًا خصبًا .

(٢) رواه أبو داود [١١٦٩] ، والحاكم في المستدرک [٣٢٧/١] ، وقال : صحيح على شرط الشيخين ، وقال الألبانى : صحيح .

ولذلك لا بد أولاً أن تستنفذ أسباب الله الممدودة إليك ، فلا
ترد يد الله الممدودة إليك بأسبابه وتتجه إلى المسبب إلا في

= ثم رفع يديه ، فلم يزل في الرفع حتى بدا بياض بطنه ، ثم
حوّل إلى الناس ظهره ، وقلب - أو حوّل - رداءه وهو رافع
يديه ثم أقبل على الناس ، فرل ، فصلى ركعتين ، فأنشأ الله
عز وجل سحابة فرعدت ، وبرقت ، ثم أمطرت بإذن الله
تعالى ، فلم يأت مسجده حتى سالت السيول ، فلما رأى
سُرْعَتَهُمْ إِلَى الْكَرِّ ؛ ضحك النبي ﷺ حتى بدت بواجذه ،
وقال : « أشهد أن الله على كل شيء قدير ، وأنى عبد الله
ورسوله » (١) .

وعن عبد الله بن عمرو رضى الله تعالى عنه قال : كان رسول
الله ﷺ إذا استسقى قال . « اللهم اسق عبادك وبهائمك ،
وامش رحمتك وأحيى بملك الميت » (٢) .

-
- (١) رواه أبو داود [١١٧٣] ، وقال هذا حديث غريب ، إسناده
جيد . والحاكم في المستدرک [٣٢٨/١] وقل : صحيح على
شرط الشيخين ، ووافقه الذهبي . وقال الألباني : حسن .
(٢) رواه أبو داود [١١٧٦] . وقال الألباني : حسن .

حالة فشل الأسباب واضطرارك ، لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ [النمل : ٦٢] . والمضطر هو الذى استنفذ أسباب الله فى الأرضى ، ولم يبق له إلا التوجه إلى الله مباشرة ، ضارعا إليه ، مستنجدا به ، لذلك تجد بعض الناس يتعجل ويقولون إنه دعا الله ولم يجبه ، نقول له : إنك لم تستنفذ الأسباب . ويظن الناس أن الأسباب وحدها تعطى ، وهذا أحد أهم أسباب تأخر الإجابة ، لذلك .. لا بد لكل إنسان أن يكون الله فى باله فى كل عمل ، ويعلم أنه لولا ترفيقه له ما رشد ، ولتعطلت الأسباب ، ولم تجبه ولا بد أن يكون قائما بأمره مخلصا له الدين ، ولا يعتقد أن الأسباب تعطى بذاتها بل بقدرة الله ، ولذلك قد يأخذ الإنسان بالأسباب كلها ثم يأتى ما يفسد له النتيجة مثل : آفة زراعية أو عاصفة ، أو أمطار غزيرة ، فتمنع الأسباب من العطاء ، ابتلاء من الله تعالى ، وليلفتك إلى أن الأسباب وحدها لا تعطى ، وحتى لا تغتر وتقول : ﴿ إِنَّمَا أُوْنِيتُمْ عَلَىٰ ظُهُرِ عِبْدِي ﴾ [القصر : ٧٨] .

فأنت إذن .. مع أسباب الله تعالى أولاً تأخذ بها ، فإذا ما استنفدتها لجأت إلى المسبب سبحانه مباشرة ، وإياك أن تدعو الله مثلاً إن كنت تلميذاً في مدرسة أو يوفقك للإجابة الصحيحة ، وأنت لا تذكر ولا تفتح كتاباً ، ولكن ذاكر وادع بالنجاح وبذلك يكون لك أكثر من رصيد في الحياة ، فإذا لم نعطك الأسباب ، كان لك سند من الله تعالى .

والتوكل عمل القلوب وليس عمل الجوارح ، فالجوارح تعمل والقلوب تتوكل ، على أننا لابد أن نلاحظ أن قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ إليك حين تتوكل على الله إنما تتوكل على ربك ورب هذا الكون الذي سحر لك كل شيء فيه ، حتى الأشياء التي فوق قدرتك كالشمس والمطر والرياح إلى آخر ذلك من قوى الكون المسخرة لخدمتك ، فالله تعالى خلق لك ما نزرعه وما تركبه وما تأكله وما تشربه وجعل هذا الكون كله يعمل من أجلك ولذلك يطلب الحق سبحانه وتعالى من عبده المؤمن أن يقول دائماً مخلصاً من قلبه

﴿ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ
 الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ [التوبة : ١٢٩] . وأن يطابق هذا القول
 العمل فلا يقول ذلك بلسانه وينصرف بجوارحه لعمل لشيء
 آخر ، أو يقول بلسانه ويهمل الأخذ بالأسباب التي سخرها له
 رب العزة سبحانه وتعالى .



إخلاص التوكل

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِن أَرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا أَسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود : ٨٨] .
 أى : لا أريد إلا الإصلاح ؛ صلاح مجتمعكم وإصلاح أموركم بقدر استطاعتي والله لا يكلف نفساً إلا وسعها وقوله : ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ يريد الحق تبارك وتعالى أن يلفتنا بها إلى أن هناك فرقاً بين العمل وبين أن توفق في العمل قد تشغل جوارحك بأى عمل ليست فيه نية خالصة لله سبحانه وتعالى ، وفى هذه الحالة لا يأتيك التوفيق لأن الأعمال بالنيات ، ولا بد وأن تكون نيتك خالصة لله تعالى ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ حين تسمع إنساناً

(١) أخرج البخارى [١] عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى دينا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

يقول على الله توكلت ، قل له أتوكلت على الله وحده ؟ فإن قال لك وعليك أيضاً فاعلم أن مسألكه لن تقضى (١) .
 أما إذا توكل على الله وحده فلا بد أن يقضى الله له حاجته ، ذلك مثل الرجل الذى يدخل المسجد لأنه يريد أن يتكلم مع فلان انذى دخل إلى المسجد فى أمر من أمور الدنيا وساعة يحدث هذا يجب أن تقول له : إن شاء الله إن الله لن يقضى هذا الأمر ، تماماً كالذى جاء يبحث عن ناقته التى ضلت ، جاء يبحث عنها وينادى فى المسجد ، فقل له رسول الله ﷺ :

(١) لأنه فى هذه الحالة قد جعل ندًا لله تعالى ، وهو ما بهى عنه رسول الله ﷺ فيما يرويه ابن عباس رضى الله تعالى عنهما عند أحمد فى المسند [٢١٤/١] أن رجلاً قال للنبي ﷺ : ما شاء الله وشئت ، فقال له النبي ﷺ : « أجعلتنى والله عدلاً ؟ بل ما شاء الله وحده » . وصححه الأرنؤوط .

وفى تاريخ بغداد [٤٢١٨/١٠٤/٨] عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال ؛ قال رجل للنبي ﷺ : ما شاء الله وشئت ، فقال : « أجعلتنى لله ندًا ؟ قل : ما شاء الله وحده » .

« لا ردُّ الله عليك ضالتك » ^(١) والذي جاء لعقد صفقة في المسجد قال له النبي عليه الصلاة والسلام : « لا أربح الله تجارتك » ^(٢) يؤخذ من ذلك : ألا نسحب الدنيا معنا داخل المسجد .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِلَيْهِ أُتِيبُ ﴾ أى أرجع إليه فالله سبحانه وتعالى هو البداية والنهاية بالنسبة لنا جميعاً ، وما دامت المسألة

(١) أخرح مسلم [٧٩/٥٦٨] عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه

قال : قال رسول الله ﷺ : « من سمع رجلاً يشد ضالة في المسجد فليقل : لا ردها الله عليك فإن المساحد لم تبز لهذا » .

(٢) روى اترمذى [١٣٢١] وصححه الألبانى ، عن أبي هريرة

رضى الله تعالى عنه ، أن رسول الله ﷺ قال . « إذا رأيت من

بيع أو يتاع في المسجد فقولوا : لا أربح الله تجارتك ، وإذا

رأيت من يشد فيه ضالة فقولوا : لا رد الله عبيك » .

قال : أبو عيسى حديث أبي هريرة حديث حسن عريب ،

والعمل على هذا عند بعض أهل العلم ؛ كرهوا البيع والشراء

في المسجد . وهو قول أحمد وإسحاق ، وقد رخص فيه

بعض أهل العلم في البيع والشراء .

أن التوفيق بيد الله سبحانه وعليه التوكل وإليه المصير فأنت غير
 محتاج إلى غير الله جل جلاله ، فأخلص النية ، وأصدق القول
 والعمل ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ
 فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ١١٠] .



رديلة البخل

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ
النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ
وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ [النساء . ٣٧] لقد جاء
بالمقابل للأريحية والجود وبسط اليد وهو البخل ، والبخل هو :
المشقة في الإعطاء فعندما يأتي الإنسان ليعطى شيئاً فهو يجد
في العطاء مشقة ، أما المؤمن فهو مرزوق بسطة الكف
والأريحية ، أي : أنه يرتاح للمعروف .

والبخل الذي هو مشقة في العطاء قد يتعدى حتى يفسد هذا
البخل بالشئ الذي لا يصبر بذله ولا ينفع منه ، ولكنها
النفس البخيلة التي لا ترعب في العطاء حتى ولو هي ذات
نفسه ، وها هو الشاعر يصور البخيل وهو يخل على نفسه
وإذا كان إنسان ما قد يحل على نفسه فكيف يجود على غيره .
إن الشاعر يذم واحداً اسمه عيسى وهو بخيل حتى على نفسه
فيما لا يضر بذله ولا ينفع منه فيقول :

يُقْتَرُ عَيْسَى عَلَى نَفْسِهِ وَلَيْسَ يَتَأَقَّ وَلَا خَالِدٍ
فَلَوْ يَسْتَطِيعُ لِتَقْتِيرِهِ تَنْفُسَ مَنْ مِنْحَرٍ وَاحِدٍ

إنه بخيل إلى الدرجة التي يَضُنُّ بها على نفسه ، فلا يتنفس
بفتحتي أنفه ، ولكنه لو استطاع أن يتنفس بفتحة أنف واحدة
لمصلحة ما ، أو فائدة تعود عليه ، لفعل لو استطاع .

وهناك شاعر آخر صور البخيل صورة تمنع عن هذا البخيل
الأريحية والكرم فيقول :

لَوْ أَنَّ بَيْتِكَ يَا بَنَ عَمِّ مُحَمَّدٍ إِبْرَ يَضِيقُ بِهَا فَضَاءَ الْمَنْزِلِ
وَأَتَاكَ يَوْسُفُ يَسْتَعِيرُكَ إِهْرَةً لَيَخِيطَ قَدْ قَمِيصِهِ لَمْ تَفْعَلِ
إنه بخيل حتى بإبرة واحدة لو طلبها منه سدا يوسف عليه
السلام الذي قَدْ قَمِيصه من دبر ، أثناء محاولة امرأة عزيز مصر
مراودته عن نفسها ، فلن يعطيه .

إذن .. البخيل هو أن يضيق الإنسان بالإعطاء ، حتى أنه
يضيق بعباء شيء لا يضره أن يذله ولا ينفعه أن يمنعه ، لذلك
قال الحق سبحانه وتعالى عن البخلاء :

﴿ وَلَا يَخْصِنَ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ

خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ
 مِيرَاثُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ [آل عمران : ١٨٠]
 إن الحق سبحانه يتوعد البخيل بطوق مما بخل به يطوق به عنقه
 فلو أن البخيل قد بذل قليلاً لكان الطوق حقيقاً حول رقبتة يوم
 القيامة ، لكن البخيل كلما منع نفسه من العطاء ازداد الطوق
 ثقلًا .

لقد قال الحق أيضاً عن الذين يكتزون الذهب والفضة :
 ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي
 سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ يَوْمَ يُخَمَّى عَلَيْهِمَا فِي
 نَارِ جَهَنَّمَ فَتَكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا
 مَا كَنْزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [التوبة : ٢٦-٢٧]
 إذن .. فكلما زاد رصيدهم من كنز الذهب والفضة مع عدم
 الإنفاق في سبيل الله ، زاد وقود النار التي يحرقون بها ، والتي
 تكوى بها : الجباه ، والجنوب ، والظهور .

إذن .. فالإنسان عليه أن يحفف عن نفسه الكثر بما يكثر ،
 والبحلاء الذين بخلوا على أنفسهم ، وامتنعوا عن إعطاء الناس

من مال الله لا يكتفون بذلك ، بل يحبون أيضاً أن تتعدى إلى سواهم كأنهم عاشقوا البخل ، فيؤلمهم أن يروا إنساناً جواداً فيقول البخيل للمنفق في سبيل الله لا تنفق .. لماذا ؟ حتى لا يكون هناك من هو أفضل منه .

إذن .. فالبخيل يعرف أن الكرم أفضل من البخل ، ولكنها نفسه الأمارة بالسوء .

والدليل أنه يطلب من الناس جميعاً أن يكونوا بحلاء ﴿ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ [النساء : ٣٧] .

والبحل كما عرفنا ضُرُّ بما آتاه الله للإنسان على من لم يؤت . والبحل ليس في المال فقط إنما هو في كل موهبة من المواهب ، فمن يَصِرْ بموهبته على غيره فهو بخيل ، والذي يحل بقدرته على معونة العاجز عن القدرة بخيل ، والذي يخل بما عنده من علم على من لا يعلم بخيل ، والذي يخل حتى على السفينة بالحلم بخيل ، فما دام الإنسان يملك طاقة من الحلم فلماذا لا يبذلها على تحمل السفينة ؟

إذن .. البخل هو أن يمنع الإنسان شيئاً قد وهبه الله له عن واحد محتاج ومن الأمثلة على ذلك : البارع فى صنعة ما ثم يضمن بأسرارها على تلاميذه هذا لون من البخل .

وأشوأ أنواع البخل هو ما اقترفه هؤلاء الدين آتاهم الله الكتاب ، وعرفوا صفات الرسول ﷺ ، بل يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، فلم جاءهم ما عرفوا - وهو الرسول ﷺ - كفروا به وكنتموا ما عرفوا عن الناس .

وهكذا صارت موهبة العلم بالصادق المصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم أمراً مكتوماً عند هؤلاء ، وهذا بخل فى القمة ، وهم لا يكتفون بذلك بل يأمرؤن الناس بإنكاره ﷺ وعدم تصديقه ؛ ليس هذا فقط ، بل يقولون لهم أنتم أهدى مه سبيلا ، ونحن نعرف أن الأنصار من الأوس والخزرج الذين هاجر إليهم الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة ، هؤلاء الأنصار رضى الله تعالى عنهم كانوا يملكون الأريحية الإيمانية فساعة جاءهم المهاجرون من مكة ، آحوهم وقاسموهم المال ، حتى النعمة التى غرس الله فى قسب المؤمن الغيرة عليها من أن ينالها أحد

حتى ولو كان كارهاً لها ، وهى .. نعمة الزوجة ، حتى هذه النعمة حاول بعض الأنصار أن يُطلق امرأة من زوجاته ليزوجها إلى أخيه المهاجر ؛ ونحن نرى فى الحياة أن الإنسان قد يكره زوجته ويكره أيضاً أن يطلقها أو أن يتزوجها أحد بعد طلاقها ولكنه إيثار المؤمن لأخيه المؤمن (١) .

(١) أخرجه البخارى [٣٧٨١] عن أنس رضى الله تعالى عنه أنه قال :
 قَدِمَ عَلَيْنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَأَخِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَهُ
 وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ - وَكَانَ كَثِيرَ الْمَالِ - فَقَالَ سَعْدُ : قَدْ
 عَلِمْتُ الْأَنْصَارَ أَنِّي مِنْ أَكْثَرِهَا مَالًا ، سَأَقْسِمُ مَالِي بِيَسَى
 وَبِئْسَ شَطْرَيْنِ ، وَلِيْ امْرَأَتَانِ فَاَنْظُرْ أَعْجِبُهُمَا إِلَيْكَ فَأُطْلِقُهَا
 حَتَّى إِذَا خَلَّتْ تَرْوِجَتَهَا .
 فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ : بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ . فَلَمْ يَرْجِعْ يَوْمَئِذٍ
 حَتَّى أَفْضَلَ شَيْئًا مِنْ سَمْنٍ وَأَقْطَعَ ، فَلَمْ يَلْبِثْ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى
 جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعَلَيْهِ وَضْرٌ مِنْ صُفْرَةٍ . فَقَالَ لَهُ
 رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَهْتَم ؟ » قَالَ : تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ
 فَقَالَ : « مَا سَقَتْ فِيهَا ؟ » قَالَ : وَزَنَ نَوَاةً مِنْ ذَهَبٍ - أَوْ نَوَاةً
 مِنْ ذَهَبٍ - فَقَالَ : « أَوْلِمَ وَلَوْ بِشَاةٍ » .

والحق سبحانه وتعالى يُصَدِّدُ أُرَيْحِيَةَ الْأَنْصَارِ ، حتى أن
الأنصارى يأتى بالمهاجر ويقول له : انظر إلى روحانى فما
يروقك منهن أطلقها وتزوجها .

إن الأنصارى المؤمن يضرب المثل فى الأريحية ، فالمؤمن
حين يكون فى نعمة فهو يحب أن يُعَدَّى أثر نعمته على غيره ،
وهذا ارتقاء إيمانى فى ذوات الأنصار فحين استقبلوا المهاجرين
كانوا يعلمون أن المهاجرين تركوا وراءهم أموالهم ومساكنهم
ونسائهم وخرجوا مهاجرين إلى الله تعالى ورسوله ﷺ وكان
من بين هؤلاء المهاجرين شباب فيهم فتوة وأهاليهم محبسون
فى مكة ولا يوجد مع المهاجر معهم روحته ولذلك عمل
الأنصار على تزويج المهاجرين لينفسوا عن عواطفهم لأن أقل
ما فى ذلك أن يُعَفَّ الأنصارى أخيه المهاجر وهذا سد باب
قد يدخل منه الشيطان .



عداوة الأخلاء

﴿ وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِيقًا نَّائِسٍ وَلَا يُؤْمِنُونَ
بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ
قَرِينًا ﴾ [النساء ٣٨] الحق سبحانه وتعالى يبين لنا في آخر هذه
الآية السبب الذى جمعهم على ذلك ؛ إنها أسباب متعددة
يجمعها كلمة : « شيطان » فكل من يمنع إنساناً من فعل الخير
فهو شيطان ، أو من فعل الشيطان . ابتداء من شهوات النفس ،
أو غفلة العقل عن المنهج ، أو قرين سوء يُزَيِّس للإنسان الفحشاء
أو شيطان يوسوس . كل ذلك نسميه « شيطان » ، أو من فعل
الشيطان ، لأنه يعد الإنسان عن المنهج وهناك شياطين الجن
وشياطين الإنس ، والنفس حين تُحَدِّث صاحبها بالألا يلترم
بمنهج الله تعالى فهى تغريه بالشهوات التى سيفقددها عند تقيده
بمنهج الله تعالى ، ونقول لصاحب هذه النفس : إنها شهوة
عاجلة أصاعت منك مُتَعَاً لا حدود لها آجلة .

إذن .. السبب الذى جعل هؤلاء يخلون ويأمرون الناس
 بالبخل هو الشيطان ، لذلك يقول الحق سبحانه ﴿ وَمَنْ
 يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴾ [النساء : ٣٨] .
 وساعة يكون الشيطان قريناً فهو مقترن بالإنسان ، ولذلك
 يسمون « القرن » بكسر القاف هو العدو الذى ينازله الإنسان
 ويسمون « القرن » بفتح القاف هو الرمن الذى يقترن جيلًا
 بجيل ، وعندما يكون الشيطان قريناً فهو إذاً مقترن بالإنسان ،
 ملازم له ، فيئس القرين هذا ، لماذا ؟ لأن القرين الذى لا
 يحض الإنسان على الخير بل يحضه على الانفلات من منهج
 الله وأتباع شهوات اعى ، هو قرين سوء ، ولذلك كل الدين
 اجتماعوا فى الدنيا على معصية الله تعالى ستجدهم فى الآخرة
 أعداء ألداء ، وقرأ قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ الْأَخِلَّاءُ
 يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ [الفرقان : ٢٤] .



البخيل ييسر للطائع طاعته ١١

إن البخيل قد حرم نفسه من ماله وادخره .. فلمن ادخره ؟
إنه ادخره لبشر آخرين وم دام الادخار لأناس آخرين ، فهذا
يعنى أن رزق البخيل ضيق وهم الذين سيأخذونه .. فهم إذا
رزقهم هم أوسع منه .

والبخيل حين يكتز المال ويحافظ عليه فهو قد ييسر سيلاً
لمن يُعطى ، ولنفرض مثلاً أن واحداً كان كريماً للغاية وكرمه لا
يدعه يتوارى من السائل ، والناس كلهم أمل في مساعدته ،
ودخل هذا الكريم لم يهض بتبعاته فإن كان يملك عدداً من
العمارات السكنية ، أو من الأرض ، فقد يضطر لبيع شيئاً مما
يملك لينفق منه ، وعندما يريد أن يبيع فسيشترى منه الذى
يكتز المال .

إذن .. البخيل هو الذى يدبر للمُتق ما يفسقه ، إنه ييسر سبيل
الطاعة للمحسن ، إن البخيل لن يخل إلا على نفسه ، وكما
قلنا لصاحب السيئة : إياك أن تعتقد أنك اختلست شهوة من

اللَّهُ وَبِكَتْكَ اخْتَلَسْتُ شَهْوَةَ سِتْلِهِبِكَ حَتَّى تَفْعَلَ الْكَثِيرَ مِنْ
 الْحَسَنَاتِ لِتَذْهَبَ السَّيِّئَاتِ كَمَا قَالَ رَبُّنَا سُبْحَانَهُ : ﴿ إِنَّ
 الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ [هود ١١٤] .
 وَرَحِمَ اللَّهُ الْقَائِلَ : رَبِّ مَعْصِيَةٍ أَوْرَثْتُ ذُلًّا وَانْكَسَارًا خَيْرَ
 مِنْ طَاعَةٍ أَوْرَثْتُ عِزًّا وَاسْتِكْبَارًا .

○ ○ ○

سبب البخل

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ خَرَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴾ [الإسراء : ١٠٠] .
 الخزائن هي : ما يحفظ فيها الشيء النفيس ، الذي له قيمة ،
 قال تعالى : ﴿ وَلَوْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِكُمْ وَمَا نُنْزِلُهَا إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر : ٢١] أي : أن كل شيء عند الله تعالى موجود ، وحينما تحين ساعة ميلاده يبرزه إلى عالم المشاهدة ولذلك الحق سبحانه وتعالى حينما تحدث عن خلق السماوات والأرض ، قال سبحانه : ﴿ قُلْ أَيْسَّرُ لَكُمْ تَكْفُرُونَ يَا لَيْدِي خَقَّ الْأَرْضِ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَتَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [سجدة : ١٦] وجعل فيها رويسا من فوقها وبترك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سوءا للسابطين ﴿ [نصت : أي : أن الحق سبحانه قدر أقوات المخلوقات جميعا ووضعها في الأرض يوم أد خلقها .
 والقوت هو : ما به استبقاء الحياة ، وهو نشيء من الأرض التي تخرج الزروع والثمار .

إن الحق سبحانه وتعالى يعطى تصديقات من طموحات العلم فيجعل العلم يهتدى إلى أشياء ذكرها القرآن منذ نزوله قبل أربعة عشر قرناً من الزمان لذلك عندما حللوا عناصر الإنسان يوم حللوها وجدوها ستة عشر عنصراً رئيسياً ، بدأت بالأكسجين ثم الكربون والنيتروجين والهيدروجين والفوسفات والفوسفور والحديد والصدوديوم والفلور والكلور .. إلى أن وصلت إلى المنجنيز ، المهم أنها ستة عشر عنصراً رئيسياً . وبعد ذلك حللوا تربة الأرض التى تنبت الزرع فوجدوا أنها ستة عشر عنصراً رئيسياً أيضاً .

إذن .. الله سبحانه خلقنا من طين ويطعمنا من عناصر هذا الطين أيضاً وهذا ما أثبتته العلم لأن الزرع يخرج من الطين وفيه عناصر هذا الطين .. الذى خُلق منه الإنسان ولكن كيف يأتى هذا الطين وما طريقة تكوينه ؟ الطين يأتى من الجبال فالشمس تلقى بأشعتها على الجبال فتحدث فيها حرارة ، وبعد ذلك يأتى برد الليل فيحدث تشققاً فى هذه الجبال ، ثم يأتى المطر فيفتت مادة هذه الجبال ويجرفها معه إلى الوديان حيث تحملها

الأنهار وهو ما يسمى : الطمى أو الغرين ، وهى التى تخصب
التربة وتعطيها الطبقة الطينية التى ينبت فيها الزرع .
إذن .. الجبال هى مخازن الأقوات ، فحين يذكر الحق
سبحانه وتعالى البركة فى الأرض وتقدير الأقوات فيها بعد
ذكر الجبال فهو بذلك يعطينا تسلسل العملية ، ولو لاحظنا
تكوين الجبال والوديان لوجدنا الوادى هو منخفض بين جبلين ،
والجبال دائماً لها قمم فليس هناك جبل مسطح بدون قمة ،
هذه القمة مثل رأس المثلث ، والوادى على العكس مثلث
قاعدته فى أعلى ورأسه إلى أسفل ، فحين ينزل الطمى أو
الغرين من قمة الجبل ينزل فى الوادى فترتفع أرضه شيئاً فشيئاً
ولذلك فإن مدينة دمياط مثلاً كانت فوق البحر مباشرة ومع
استمرار تدفق الطمى مع فيضان النيل سنوات طويلة وسع
مساحة الأرض على ساحل البحر ولما امتنع الغرين بعد بناء
السد العالى وتوقف الفيضان بدأت هذه المساحات فى التراجع
والتآكل بفعل احتكاك مياه البحر بالأرض .

إذن .. قوله : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ﴾ [مصلح : ١٠] كشف
 الله تعالى لهم صدقه .. بمنطق العلم الحديث الذى يفهمونه ،
 ولكن لأن الإنسان دائماً حريص وشحيح فحتى حزائن رحمة
 الله مع عظم اتساعها وضخامتها والتي لا يعلم ما فيها إلا الله
 تعالى ، يؤملونها سبحانه لهؤلاء الناس لأمسكوا عن الإنفاق
 منها خشية أن تنفذ ، لأن الإنسان مجبول على أنه « فتور »
 يخشى على ما عنده من النفاد حتى لو كان هذا الشيء هو
 حزائن رحمة الله سبحانه وتعالى ، والتفتير يكون على النفس ،
 والبخل يكون على الغير .



أسباب الشح

شح النفس سببه أن الإنسان لا يأمن على غده ، لذلك فهو يحاول إن كان يملك شيئاً أن يؤمن ذلك الغد فتجده يحافظ على ما عنده من حاجات ، لذلك سُنت قوانين الحياة والملكية والمتاعية ، ونشأت هذه الأشياء لا أقول من أول الخلق .. ولكن يوم أن ضاقت الأمكنة المعطية عن حاجات الناس ، ذلك أنه حين تكون الأمكنة المعطية تسع الحاجات فلا يكون هناك خوف من الغد ، مثال ذلك : لنفترض أن رجلاً اشترى صندوقاً من البرتقال فإذا ما قام ابن هذا الرجل وأخذ ببرتقالة أو اثنتين فلا يؤثر في الصندوق لأن به كمية كسرة تكفى لذلك وتفيض ، ولكن لو هذا الرجل أحضر كيلو من البرتقال مثلاً فإنه في هذه الحالة يكون حريصاً على أن يقسم البرتقال بين أولاده ، ولا يترك كل ابن يأخذ على هواه .

وهكذا كان الأمر في بدء استغلال الإنسان في هذه الأرض ، فمن أراد مساحة من الأرض أخذها واستعمرها

وأخرج ثمارها ، ومن أراد العمل ، ففي الأرض متسع لكل عامل لكن التميزات الملكية ظهرت حين بدأ النقص في هذه الأشياء فبدأت الحدود ، والقوانين .. إلخ . وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴾ [الرحمن : ١٠] .

والحق سبحانه وتعالى يأتي في هذه المسألة ويقول : ﴿ لَنَالُوا آلَ الْإِرِّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران : ٩٢] والنفقة لو نظرت إليها نظرة واقعية حقيقية ، لوجدت أنك أيها العبد مضارب في خير الله ، ومعنى « مضارب » : أى أنك تعمل عند الله بالعقل الذى خلقه لك ، وتخطط بهذا العقل ، وتعمل عند الله بالطاقة التى خلقها الله ، والمادة التى خلقها الله لك تنفعل معها وهذا يعنى : أن كل شئ لله ، وأنت أيها الإنسان مجرد مضارب وما دمت مضارباً فأعط له حقه ، وحق الله لا يأخذه هو ، فهو سبحانه أغنى الأغنياء ، إن حق الله يأخذه أحوك غير القادر على أن يتفاعل مع المادة ليكون مضارباً ، ولا تظن أيها العبد أن الله حين طلب منك النفقة بما تحب أن الله قد استكثر عليك ما وهبك فطلب منك أن تنفقه أو تنفق منه ، ولكن الله

حين يأخذ منك لأخيك وأنت قادر إنما يؤمنك سبحانه إن عجزت ، فسيأخذ لك من القادرين ليسد عجزك ويكفيك مؤنتك ، وذلك هو التأمين في منهج الله تعالى .

إن الحق يرغبنا في أن ننفق ، لكن بعض الناس يحاول أن ينفق مما لا فائدة منه عنده ، فيهدى مثلاً الثوب الذي بُلى ، ولم يعد صالحاً للاستعمال لفقير ، أو يعطي اخذاء القديم لواحد محتاج ، أى : أن الإنسان لا ينفق إلا ما هو زاهد فيه ، الله يأمرنا بأن ننفق مما نحب لذلك انفعل صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم حينما سمعوا هذا النص : ﴿ لَنْ نَسْأَلُوا النَّبِيَّ حَتَّى تَنْهَقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [ال عمران ٩٢] فهذا طلحة بن عبيد الله حينما يسمعها يقول يا رسول الله إن أحب مالى إلى هو « بئر حاء » فأنا أخرجها في سبيل الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اجعله في أقاربك » فجعله في أقاربه . وهذا زيد بن حارثة انفعل مع الآية الكريمة وكان عنده فرس اسمه « دنديل » وكان يحبه ، فقال يا رسول الله أنت تعلم

حبى لفرسى وأنا أنفقه فى سبيل الله ، فأخذه منه رسول الله ﷺ
وجاء بأسامة بن زيد وأركبه الفرس ، فقال زيد : فوجدت فى
نفسى ، أى : أنه حزن ، وقال زيد : يا رسول الله أنا أردت أن
أنفق الفرس فى سبيل الله وأنت تعطى لفرس لابنى ليركبه .
فقال رسول الله لزيد : « أما أن الله قد قبله منك » .

وينفع سيدنا أبو ذر رضى الله تعالى عنه وكان عدله إبل
لها فحل وهو ذكر قوى وكان هذا الفحل أحب مال أبى ذر
إليه ، وجاء ضيف إلى أبى ذر فقال له : إنى مشغول فاخرج
إلى إبلى فاختر خيرها ليذبحه ، فخرج الضيف ثم عاد فى
يده ناقة مهزولة فلما رآها أبو ذر قال : والله لقد خستى ،
قلت لك : هات خير الإبل ، قال الضيف يا أبا ذر لقد رأيت
خيرها فحلاً لك وقدرت يوم حاجتكم إليه ، فقال أبو ذر : إن
يوم حاجتى إليه يوم أن أضع رأسى فى التراب .

إن الصحابى الجليل أبا ذر يعرف أن يوم أن يوضع فى الحفرة
هو اليوم الجليل الذى يستحق من المرء أن يستعد له .

وسيدنا عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما كان عنده
جارية جميلة من فارس وكان يحبها فلما سمع الآية .. قال :
ليس عندى أحب من هذه الجارية ، وأعتقها . فلما أعتقها
وكان من الممكن أن يتزوجها لكنه قال لولا أن ذلك يقدر فى
عتقها لتزوجتها .

وسيدنا أبو ذر رضى الله عنه يعطينا فى مسألة الإنفاق درساً
من أروع الدروس المستوعبة للملكة النفسية فيقول : فى المال
شركاء ثلاثة :

الشريك الأول : القدر لا يستأمر أن يذهب بخيرها أو
شرها من هلاك أو موت ، أى أن القدر لا يستأذن عبداً فى أن
يذهب المال حيث يريد ، فتأتى أى مسألة لتأخذ المال إلى
هلكة أو موت .

والشريك الثانى فى المال يوضحه لما أبو ذر فيقول : الوارث
يتظرك إلى أن تضع رأسك ، ثم يشاقها وأنت ذليل ، إن
الوارث يقول لنفسه : « لأستمتع بما ترك لى » .

والشريك الثالث في المال : أنت ، فإن استطعت ألا تكون
أعجز الثلاثة فلا تكن أعجزها . أى : إياك أن يغلبك على المال
القدر أو الوارث ، إنما عليك أنت أن تغلب على مالك بإنفاقه
في سبيل الله وإلا لأخذ الشركاء منك المال .
إذن .. لقد انفعِل صحابة رسول الله ﷺ بالآية حينما نزلت
بصورة تبين عن مدى الخير المحبوب منهم إلى غيرهم وكان
جزاء ذلك الجنة (١) .

(١) أخرجه البخارى [٤٥٥٥] عن أنس بن مالك رضى الله
تعالى عنه قال : كان أبو طلحة أكثر أنصارى بالمدينة نخلاً
وكان أحب أمواله إليه « بيرحاء » وكانت مستقلة المسحد
وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب ،
فلما أنزلت : ﴿ لَنْ نَأْكُلَ الْبَرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ قام أبو
طلحة فقال يا رسول الله ، إن الله تعالى يقول : ﴿ لَنْ نَأْكُلَ
الْبَرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ وإن أحب أموالى إلى « بيرحاء »
وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله ، فضعها يا رسول
الله حيث أراك الله . قال رسول الله ﷺ : « يح ذلك مال
رابح ، ذلك مال رابح ، وقد سمعت ما قلت وإنى أرى أن
تجعلها فى الأقربين » . قال أبو طلحة :

= أفعل يا رسول الله ، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه .
ورواه الترمذى [٩٩٧] ، والنسائي في المجتبى [٢٣١/٦] ،
وأحمد في المسند [١١٥/٣] ، وابن خزيمة [١٠٣/٤] ،
والبيهقي في السنن الكبرى [٩٤/٤] ، وأبو يعلى [٤٦٣/٦] ،
والدارقطني في سننه [١٩١/٤] .

وروى الحاكم في المستدرک [٣/٥٦١] عن ابن عمر رضی
الله تعالى عنهما قال : ثَلَوْتُ هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ
حَتَّى نُنْفِقُوا مِمَّا نَحِبُّونَ﴾ [آل عمران : ٩٢] فذكرت ما أعطاني
الله تعالى مما وجدت شيئاً أحب إلي من جاريتي رضية ،
فقلت : هي حرة لوجه الله عز وجل ، فلولاً أبى لا أعود في
شيء جعلته لله عز وجل لنكحتها ، فأكحها نافع ، فهي أم
ولده .

وقال السيوطي في الدر المنثور في تفسير قول الله تعالى : ﴿لَنْ
نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى نُنْفِقُوا مِمَّا نَحِبُّونَ﴾ ، أخرج عبد بن حميد
عن ثابت بن الحجاج قال : « بلغني أنه لما نزلت هذه الآية ﴿لَنْ
نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى نُنْفِقُوا مِمَّا نَحِبُّونَ﴾ قال زيد : اللهم إنك تعلم
أنه ليس لي مال أحب إلي من فرسي هذه فتصدق بها =

- على المساكين . فأقاموها تباع وكانت تعجبه ، فسأل

النبي ﷺ فهاه أن يشتريها .

وأخرج ابن جرير عن ميمون بن مهران أن رجلاً سأل أبا ذر
أى الأعمال أفضل ؟ قال : الصلاة عماد الإسلام ، والجهاد
سنام العمل ، والصدقة شىء عجيب .

فقال : يا أبا ذر لقد تركت شيئاً هو أوثق عملى فى نفسى لا
أراك ذكرته ! قال : ما هو ؟ قال : لصيام ! فقال : قرينة وليس بها
وتلا هذه الآية : ﴿ لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا يُحِبُّونَ ﴾ .
وأخرج عبد بن حميد عن رجل من بنى سليم قال : جاورت
أبا ذر بالريذة وله فيها قطيع إبل ، له فيها راع ضعيف فقلت :
يا أبا ذر ألا أكون لك صاحباً أكنف راعيك وأقتس منك
بعض ما عندك لعل الله أن يعنى به ؟ فقال أبو ذر : إن
صاحبى من أطاعنى فإما أنت مطيعى فأنت لى صاحب وإلا فلا .
قلت : ما الذى تسألى فيه الطاعة ؟ قال : لا أدعرك بشيء
من مالى إلا توخيت أفضيه .

قال : فلبثت معه ما شاء الله ثم ذكر له فى الماء حاجة فقال :
انتنى بيعير من الإبل فتصفحت الإبل فإذا أفضلها محلها =

= ذلول فهممت بأخذه ثم ذكرت حاجتهم إليه فتركته وأخذت ناقة ليس فى الإبل بعد الفحل أفضل منها فجئت بها فحانت منه نظرة فقال : يا أخا بنى سليم ختسى . فلما فهمتها منه خلّيت سبيل الناقة ورجعت إلى الإبل فأخذت الفحل فجئت به فقال لجلسائه : من رجلان يحتسبان عملهما ؟ قال رجلان . نحن .

قال أما لا فأنيخاه ثم اعقلاه ثم انحراه ثم عدوا بيوت الماء فجزئوا لحمه على عددهم ، واجعلوا بيت أبى در بيتا منها ففعلوا . فلما فرق اللحم دعانى فقال : ما أدرى أحفظت وصيتى فظهرت بها أم نسيت فأعذرك ؟ قلت : ما نسيت وصيتك ولكن لما تصفحت الإبل وجدت فحلها أفضلها فهممت بأخذه فذكرت حاجتكم إليه فتركته ، فقال : ما تركته إلا لحاجتى إليه ؟ قلت : ما تركته إلا لذلك ، قال : أفلا أخبرك يوم حاجتى ؟ إن يوم حاجتى يوم أوضع فى حفرتى فذلك يوم حاجتى . إن مى المال ثلاثة شركاء : القدر لا ينتظر أن يذهب بحيرها أو شرها ، والوارث ينتظر متى تضع رأسك ثم يستفيها ، وأنت ذميم ، وأنت الثالث فإن استطعت أن =

= لا نكونن أعجز الثلاثة فلا تكوس مع أن الله يقول : ﴿ لَنْ نَنَالُوا الْآيَةَ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ وإن هذا المال مما أحب من مالى فأحببت أن أقدمه لنفسي .

وأخرج أحمد عن عائشة قالت : « أتى رسول الله ﷺ بضرب فلم يأكله ولم ينه عنه فقت : يا رسول الله أفلا نطعمه المساكين ؟ قال : « لا تطعموهم مما لا تأكلون » (١) .

وأخرج ابن المنذر عن نافع قال : كان ابن عمر يشتري السكر فيتصدق به ، فتقول له : لو اشتريت لهم بضمنه طعاما كان أنفع لهم من هذا فيقول : إني أعرف الذى تقولون ، ولكن سمعت الله يقول : ﴿ لَنْ نَنَالُوا الْآيَةَ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ وابن عمر يحب السكر .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ لَنْ نَنَالُوا الْآيَةَ ... ﴾ قال : الجنة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى الآية قال : لن تنالوا بركم حتى تنفقوا مما يعجبكم ومما تهوون من أموالكم .

= قال القرطبي فى تأويل قول الله تعالى :

(١) رواه أحمد فى المسند [١٠٥/٦] وقال الأرنؤوط : حديث

صحيح .

= ﴿لَنْ نَسْأَلُوا آلَیَّ حَقَّ تَنْفِقُوا وَمَا يُحِبُّونَ﴾ فيه مسألتان :
الأولى : روى الأئمة واللفظ للنسائي عن أنس قال : لما نزلت
هذه الآية : ﴿لَنْ نَسْأَلُوا آلَیَّ حَقَّ تَنْفِقُوا وَمَا يُحِبُّونَ﴾ قال أبو
طلحة : أن ربنا ليسألنا من أموالنا فأشهدك يا رسول الله أنني
جعلت أرضي لله ، فقال رسول الله ﷺ : « اجعلها في
قربتك » في حسان بن ثابت وأبي بن كعب .
وفى الموطأ : وكانت أحب أمواله إليه « بئر حاء » وكانت
مستقبلة المسجد وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من
ماء فيها طيب ، وذكر الحديث ففي هذه الآية دليل على
استعمال ظاهر الخطاب وعمومه فإن الصحابة رضوان الله
عليهم أجمعين لم يفهموا من فحوى الخطاب حين نزلت الآية
غير ذلك كثيرة ، كذلك فعل زيد بن حارثة عمده مما يحب
إلى فرس يقال له : « سبل » وقال : اللهم إنك تعلم أنه ليس
لى مال أحب إلى من فرسي هذه فجاء بها إلى النبي ﷺ
فقال : هذا في سبيل الله ، فقال لأسامة بن زيد اقبطه ،
فكان ريذا وجداً من ذلك في نفسه فقال رسول الله ﷺ : إن
الله قد قبلها منك .

= وذكره أسد بن موسى .

وأعتق ابن عمر نافعاً مولاه ، وكان أعطاه فيه عبد الله بن جعفر ألف دينار . قالت صفية بنت أبي عبيد : أظنه تأول قول الله عز وجل : ﴿ لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ وروى شبل عن أبي نجيح عن مجاهد قال : كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري أن يتناع له جارية من سبي جلولاء يوم فتح مدائن كسرى ، فقال سعد بن أبي وقاص : فدعا بها عمر فأعجبه ، فقال : إن الله عز وجل يقول : ﴿ لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ فأعتقها عمر رضي الله تعالى عنه .

وروى عن الأشعري أنه بلغه أن أم ولد الربيع بن حشم قالت : كان إذا جاءه السائل يقول لي : يا فلانة أعطى السائل سكرًا فإن الربيع يحب السكر

قال سفين : يتأول قوله عز وجل : ﴿ لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ .

وروى عن عمر بن عبد العزيز أنه كان يشتري أعدالا من السكر ويتصدق بها فقيل له : هلا تصدقت بقيمتها ؟ فقال : لأن السكر أحب إلى فأردت أن أنفق مما أحب . =

وقال الحسن : إنكم لن تنالوا ما تحبون إلا بترك ما تشتهون ولا
تدركوا ما تأملون إلا بالصبر على ما تكرهون .

الثانية : واخلفوا في تأويل البر قليل : الجمة . عن ابن مسعود
وابن عباس وعطاء ومجاهد وعمر بن ميمون ، والسدي ،
والتقدير : ﴿ لَنْ نَسْأَلُوا الْبِرَّ حَقَّ تَنْفِقُوا وَمَا تُحِبُّونَ ﴾ .
والنوال : العطاء ؛ من قولك نولته تنويلاً أعطيته ، ونالني من
فلان معروف ينالني ، أي : وصل إلي ، فالمنعنى : لن تصلوا
إلى الجنة وتعطوها حتى تنفقوا مما تحبون .

وقيل : البر العمل الصالح وفي الحديث الصحيح : « عليكم
بالصدق فإنه يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة » (١) .

(١) أخرجه مسلم [١٠٥/٢٦٠٧] عن عبد الله رضي الله تعالى عنه
قال : قال رسول الله ﷺ : « عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي
إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة وما زال الرجل يصدق ويتحرى
الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإياكم والكذب فإن
الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وما زال
الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً .
والترمذي [١٩٧/١] ، وبنحوه البخاري [٦٠٩٤] ، وأبو داود
[٤٩٨٩] ، وابن ماجه [٤٨٤٩] .

= وقال عطية العوفي : يعنى ، الطاعة عطاء : لن تنالوا شرف الدين والتقوى حتى تنصدقوا وأنتم أصحاب أشحاء ، تأملون العيش ، وتخشون الفقر .

وعن الحسن : ﴿ حَتَّى تُنْفِقُوا ﴾ هى : الزكاة المفروضة ، مجاهد والكلبي : هى منسوخة سحقتها آية الزكاة . وقيل ، المعنى : حتى تنفقوا مما تحبون فى سبيل الخير من صدقة أو غيرها من الصاعات ، وهذا جامع .

وروى النسائي عن صعصعة بن معاوية قال : لقيت أبا ذر قال : قلت حدثنى قال : نعم قال رسول الله ﷺ : « ما من عبد مسلم ينفق من كل ماله روجير فى سبيل الله إلا استقبلته حجة الجنة كلهم يدعوه إلى ما عنده . قلت : وكيف ذلك ؟ قال : إن كانت إبلا فبعيرين . وإن كانت بقراً فبقرتين ^(١) . وقال أبو بكر الوراق . دلهم بهذه الآية على الفتوة ^(٢) =

-
- (١) جزء من حديث رواه أحمد فى المسند [١٥١/٥] عن أبى ذر رضى الله تعالى عنه ، وقال الأرناؤوط : إسناده صحيح .
- (٢) الفتوة : يعبر بها عن مكارم الأخلاق .

لقد عرفوا قول الحق : ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ ﴾ أى : الجنة المترتبة على الطاعة والتقوى وكلها معان ملتقية .

إذن .. الحق سبحانه يعطى البر ثمناً لإنفاقك مما تحب ، ويعلم سبحانه كل شيء ، وهو الذى يعرف هل أنفقت مما تحب فعلاً أم تيممت الخبيث منه لتنفقه ، فإياك أيها المؤمن أن تخدع نفسك فى هذا الأمر لأن الذى يعطى البر ثمناً لإنفاق ما تحب يعلم خبايا النفس ، قال سبحانه : ﴿ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة ٢٧٣] وعلم الله شامل ، فهو سبحانه يعلم ما فى نيتك وكيف أنفقت .



- أى : لن تنالوا برى بكم إلا ببركم إخوانكم ، والإنفاق عليهم من أموالكم وجاهكم ، فإذا فعلتم ذلك نالكم برى وعطفى . قال مجاهد . هو مثل قوله . ﴿ وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَى حُبِّهِمْ مُشْرِكِينَ ﴾ [الإنسان : ٨] .

تفسير القرطبي [١٣٢/٤ : ١٣٤] .

تحريم الإنفاق رثاء الناس

الحق سبحانه وتعالى يحبرنا عن لون آخر من المقابل للبخل ، وهو المنعق لعاية غير حميدة لماذا ؟ لأنه يتفق رثاء الناس ، لذلك يقول العارفون بفضل الله : اختر من يثمن عطاءك . إنك عندما تعطى شيئاً لإنسان فإنه يثمنه بقدرته سواء بكلمة ثاء أو غير ذلك لكن الله يثمن الأمر بشكل مختلف ، ولذلك لما جهز سيدنا عثمان رضى الله تعالى عنه جيش العسرة قال رسول الله ﷺ : « ما ضرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم » ^(١) لماذا ؟ لأنه باع بضاعته إلى صاحب كل الفصل ، فالذى يعطى رثاء اناس يقول له : لقد احترت الشيء التافه لأنك ما ثمنت

(١) روى الترمذى [٣٧٠١] عن عبد الرحمن بن سمرة ، قال : جاء عثمان إلى النبي ﷺ بألف دينار حين جهز جيش العسرة فشرها في ححره ، فجعل يقلبها في ححره ويقول : « ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم » مرتين ، وأحمد في المسند [٦٣/٥] والحاكم في المستدرک [١٥١/٤٥٥٣] وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي . وصححه الألبانى .

بضاعتك بل جعلتها تافهة الثمن ، فرئاء الناس لن يعطيك ثواب الله ، فماذا يقدر الناس على عطائك إنهم قد يحسدونك على النعمة ، وقد يتسلط عليك شرارهم لينهبوها منك فلماذا ترائيهم ؟ الحق سبحانه قد قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآتٍ لَهُمُ الْجَنَّةُ ﴾ [التوبة ١١١] لقد اشترى الله تعالى من المؤمنين أنفسهم التي هو سبحانه خالقها ، وأموالهم التي هي موهوبة لهم منه سبحانه ، وأعطى على ذلك الثمن الكبير نعيما خالداً لا يفوتهم ويذهب لغيرهم ، ولا يفوتونه بموت أو خلافة ، لقد أعطى الجنة ، والجنة شيء غاى ونفيس ^(١) ، لا يعدله شيء . الذى ليس فيه أغيار لقد أعطاهم الجنة التي لا نفوتهم ولا يفوتونها .

(١) روى الترمذى [٢٤٥٠] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة » وقال : هذا حديث حسن غريب . والحاكم فى المستدرک [٣٤٣/٤] وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وعبد بن حميد فى المنتخب [١٤٦٠] .

إذن .. من يُرائى الناس هو من أهل الخسران ولا يعرف أصول التجارة ، ولم يعرف مع من يتاجر ، لذلك شبهه الله فى آية أخرى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِى يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابُهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ﴾ [البقرة : ٢٦٤] والصموان هو المروة وهى زلطة كبيرة وعليها قليل من التراب ، والمروة ناعمة فإذا ما نزل عليها الماء نزال كل التراب ولم يبقى عليها شىء .

إذن .. لا ينفق أحد رثاء الناس إلا من كان ضعيف الإيمان غير مُبْلَغٍ بأصول البيع والشراء لأن الإنسان إن أراد أن يبيع سلعة وهناك تاجر يشتري منه بسعر غالٍ ومضمون فما الذى يجعله يلقي بها تحت أقدام آخرون لا يقدرّون على تسمينها ، وحتى لو قدرّوا فسيكون الثمن بحس بالقياس إلى ما وعد الله عباده .

ولذلك قلنا : فليحذر كل واحد حين يعطى ، أن يتباهى أمام الآخرين أنه أعطى ، أو يحب أن يعلم الآخرين أنه

أعطى فالإنسان لا يجب أن يقوم بالدعاية أنه أعطى ،
لذلك قال النبي ﷺ : « رجل تصدق أخفى حتى لا تعلم
شماله ما تنفق يمينه » ^(١) لماذا ، لأن الرسول ﷺ يقول : « اليد
العليا خير من اليد السفلى » ^(٢) لذلك فيستتر الإنسان إنفاقه
في سبيل الله عن أعين الناس حتى يفور بالخير كله عند الله ،
ولكن الحق سبحانه وتعالى لا يريد أن يضيق على مجال
الإعطاء فقال سبحانه وتعالى : ﴿ إِن تَبَدُّوا أَلصَّدَقَتِ فَنِعِمَّا
هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤَثِّرُهَا الْفُتْرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ
عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٧١] .

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى [١٤٢٣] ، ومسلم [١٠٣١]
والترمذى [٢٣٩١] ، والنسائى فى المجتبى [٢٢٢/٨] عن أبى
هريرة رضى الله تعالى عنه .

(٢) أخرجه البخارى [١٤٢٩] ، ومسلم [٩٤/١٠٣٣] عن أبى
عمر رضى الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « اليد
العليا خير من اليد السفلى ، فاليد العليا هى المنفقة ، والسفلى
هى السائلة » .

الاحتراز من صفات المنافقين

يقول الله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة ٨٠] . الناس في الحياة الدنيا على ثلاثة أحوال : إما مؤمن وإما كافر وإما منافق . والله سبحانه وتعالى في بداية لقرآن الكريم في سورة البقرة .. أراد أن يعطينا وصف البشر جميعاً بالنسبة للمنهج وأنهم ثلاث فئات : الفئة الأولى هم المؤمنون عرفنا الله سبحانه وتعالى صفاتهم في ثلاث آيات في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۖ ﴾ [البقرة ١٧٧] وَلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۖ ﴾ [البقرة ١٧٨] أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۖ ﴾ [البقرة ١٧٩] .

والفئة الثانية عليه السلام : هم الكفار ، وعرفنا الله سبحانه ونعالى صفاتهم في آيتين في قوله تعالى : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ

قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿ [البقرة : ٧] .

وجاء للمنافقين فعرف صفاتهم في ثلاث عشرة آية متتابعة لماذا ؟ .. لخطورتهم على الدين ، فالذى يهدم الدين هو المنافق ، أما الكافر فنحن نتقيه ، ونحذره لأنه يعلن كفره .

إن المنافق يتظاهر أمامك بالإيمان ، ولكنه يطن الشر والكفر ، وقد تحسبه مؤمناً فتطلعه على أسرارك فيتخذها سلاحاً للطعن فى الدين .. وقد خلق الله فى الإنسان ملكات متعددة ولكى يعيش الإنسان فى سلام مع نفسه لابد أن تكون ملكاته منسجمة وغير متناقضة ، فالمؤمن ملكاته منسجمة لأنه اعتقد بقلبه فى الإيمان ، ونطق لسانه بما يعتقد فلا تناقض بين ملكاته أبداً . والكافر رفض الإيمان وأنكره بقلبه ، ولسانه يطق بذلك .

ولكن الذى فقد السلام مع ملكاته هو المنافق ، إنه فقد السلام مع مجتمعه وفقد السلام مع نفسه ، فهو يقول بلسانه ، ما لا يعتقد قلبه ، يُظهر غير ما يُطن ، ويقول غير ما يعتقد ويخشى أن يكشفه الناس فيعيش فى خوف عميق ، وهو يعتقد أن ذلك

شئ مؤقت سينتهى . ولكن هذا التناقض يبقى معه إلى آخر يوم
 له في الدنيا ، ثم ينتقل معه إلى الآخرة فينقص عليه لبقوده إلى
 البار واقراً قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَقَالُوا لِيَجْلُدِهِم لِمَ شَهِدْتُمْ
 عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ
 مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [صلت : ٢١] . فالسلام الذي كانوا
 يتمنونه لم يحققوه لا في حياتهم ولا في آخرتهم ، فلسان
 المنافق يشهد عليه ، ويداه تشهدان عليه ، ورجلاه تشهدان عليه ،
 والجلود تشهد عليه ، فماذا بقى له ؟ بينه وبين ربه تناقض ، وبينه
 وبين نفسه تناقض ، وبينه وبين مجتمعه تناقض ، وبينه وبين
 آخرته تناقض . وبينه وبين الكافرين تناقض . يقول لسانه ما ليس
 في قلبه ولقد وصفهم الحق في كتابه الخالد فقال سبحانه :
 ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ
 بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة : ٨] وهذه أول صفات المنافقين في القرآن
 الكريم ، يعلنون الإيمان وفي قلوبهم الكفر ، ولذلك فإن إيمانهم
 كله تظاهر إذا ذهبوا للصلاة لا تكتب لهم لأنهم يتظاهرون بها
 ولا يؤدونها عن إيمان ، وإذا أدوا الركاة ، فإنها تكون عليهم

حسرة ، لأنهم ينفقونها وهم لها كارهون ، لأنها في زعمهم نقص من مالهم . لا يأخذون عليها ثواباً في الآخرة وإذا قتل واحد منهم في غزوة ، انتابهم الحزن والآسى ، لأنهم أهدروا حياتهم ولم يقدموها في سبيل الله . وهكذا يكون كل ما يفعلونه شقاءً بالنسبة لهم .

أما المؤمن فحين يصلى أو يؤدي الزكاة أو يُستشهد في سبيل الله فهو يرجو الجنة ، وأما المنافقون فإنهم يفعلون كل هذا وهم لا يرجون شيئاً .. فكأنهم بنفاقهم قد حكم عليهم الله سبحانه وتعالى بالشقاء في الدنيا والآخرة فلا هم في الدنيا لهم متعة المؤمن فيما يفعل في سبيل الله ، ولا هم في الآخرة لهم ثواب المؤمن فيما يرحو من الله . ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة : ٩] (١) .

(١) قال القرطبي قال عسائونا . معنى ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ ﴾ أي . يخادعون عند أنفسهم وعلى ظنهم . وقيل : قال ذلك لعملهم عمل الخادع . وقيل : في الكلام حذف تقديره : يخادعون رسول الله ﷺ عن الحسن وغيره . وجعل خداعهم لرسوله -

- حادعا له لأنه دعاهم برسالته وكذلك إذا حادعوا المؤمنين فقد حادعوا الله . ومخادعتهم : ما أظهره من الإيمان خلاف ما أبطنوه من الكفر ليحسوا دماءهم وأموالهم ويظنون أنهم قد نجوا وخدعوا . قله : جماعة من المتأولين . وقال أهل اللغة : أصل المخدع في كلام العرب الفساد حكاه ثعلب عن ابن الأعرابي . وأنشد :

أبيضُ النوى لديدٌ طعمُهُ طيْتُ الرِيقَ إذا الرِيقُ حَدَخَ
قلت : ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ ﴾ على هذا أي يفسدون إيمانهم وأعمالهم فيما بينهم وبين الله تعالى بالرياء . وهي التنزيل : ﴿ يَرَاءُونَ أَمَّا سَ ﴾ [ساء ١٤٢] وقيل : أصله الإخفاء ومنه مخدع البيت الذي يحرق فيه الشيء حكاه ابن فارس وغيره . وتقول العرب : أخدع الضب في حجره ؟ والخداع من الله محاربتهم على حادعهم أوليائه ورسله . قال الحسن : يعطى كل إنسان من مؤمن ومنافق نور يوم القيمة فيفرح المنافقون ويظنون أنهم قد نجوا فإذا جاؤوا إلى الصراط أطفئ نور كل منافق فذلك قولهم : ﴿ أَطْرُونَا تَقْنِيسَ مِنْ تَوْرِكُمْ ﴾ [الحديد : ١٣] .
وقل ابن حرير الصبري : فتأويل ذلك : إن المنافقين يحادعون =

لله بإحرازهم بنفاقهم دماءهم وأموالهم والله حادعهم بما حكم فيهم من مع دمائهم بما أظهروا بألسنتهم من الإيمان مع علمه بباطن ضمائرهم واعتقادهم الكفر استدراجا منه بهم في الدنيا حتى يلقيه في الآخرة فيوردهم مما استطوا من الكفر نار جهنم .

وفي مفردات ألفاظ القرآن للأصفهاني : الخداع : إيهان العير عما هو بصده بأمر يبيده عنى خلاف ما يحفيه قال تعالى : ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ ﴾ [النفره ٩] أي : يحادعون رسوله وأوليائه ونسب ذلك إلى الله تعالى من حيث أن معاملة الرسول كمعاملته ولذلك قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَلَدِيكَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَكَ اللَّهَ ﴾ [الفصح ١] وجعل ذلك خداعا تفضيحا لفعلمهم وتببيها على عظم الرسول وعظم أوليائه . وقول أهل اللغة : إن هذا عنى حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه فيجب أن يعلم أن المقصود بمثله في الحذف لا يحصل لو أتى بالمضاف المحذوف لما ذكرنا من التنبيه على أمرين : أحدهما : فطاعة فعلهم فيما تحروه من الخديعة وأنهم بخادعتهم إياه يحادعون الله والثاني : التنبيه على عظم المقصود بالخداع

وتأتى الصفة لثانية من صفات المنافقين وهى صفة تدل على غفلتهم ، وحمق تفكيرهم ، فإنهم يحسبون أنهم بنفاقهم يخدعون الله سبحانه وتعالى وهل يستطيع بشر أن يخدع رب العالمين .

إن الله عليم بكل شئ ، عليم بما نخفى وما نعلن ، عليم بالسر ، وما هو أخفى من السر ، وهل يوجد ما هو أخفى من السر ؟ نقول : نعم ، السر هو ما أسررت به بغيرك فكأنه يعلمه

= وأن معاملته كمعاملة الله كما نبه عليه بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ ... ﴾ الآية [النح: ١٠] وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ حَدِّثُهُمْ ﴾ [الباء ١٤٢] قيل معناه : مجازيهم بالخداع وقبل : على وجه آخر مذكور في قوله تعالى: ﴿ وَمَكْرُؤًا وَمَكْرًا أَلَّهُ ﴾ [آل عمران: ٥٤] أي : هذا من باب المشاكلة في اللفظ . وقيل : تَخَدَّعَ الضب ، أي اسسر في جحره واستعمال ذلك في الضب أنه يعد عقربا تلدغ من يدخل يديه في جحره ، حتى قيل : العقرب بواب الضب وحاجبه ولاعتقاد الخديعة فيه قيل : أخذع من ضب .

اثنان ، أنت ومن أسررت إليه . ولكن ما هو أخفى من السر ما
تبقيه في نفسك ولا تخبر به أحداً إنه يظل في قلبك لا تسر به
لإنسان والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ
يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه : ٧] .

فلا يوجد مخلوق يستطيع أن يخدع خالقه ولكنهم من
عفلتهم يحسبون أنهم يستطيعون خداع الله جل جلاله . وفي
تصرفهم هذا لا يكون هناك سلام بينهم وبين الله . بل يكون
هناك مقتٌ وغضبٌ .

وهم في خداعهم يحسبون أيضاً أنهم يخدعون الذين آمنوا ،
بأنهم يقولون أمامهم غير ما يطمون ، ولكن هذا الخداع شقاءٌ
عليهم لأنهم يعيشون في خوف مستمر وهم دائماً في قلقٍ أو
خوف من أن يكشفهم المؤمنون ، أو يستمعوا إليهم في
مجالسهم الخاصة وهم يتحدثون بالكفر ويسخرون من الإيمان
ولذلك إذا تحدثوا لابد أن يتأكدوا ، أولاً : من أن أحداً من
المؤمنين لا يسمعهم ، ويتأكدوا ثانياً : من أن أحداً من المؤمنين
لن يدخل عليهم وهم يتحدثون ، والخوف يملأ قلوبهم أيضاً

وهم مع المؤمنين . فكل واحد منهم يخشى أن تفلت منه كلمة
تفضح نفاقه وكفره .

وهكذا فلا سلام بينهم وبين المؤمنين .. والحقيقة أنهم لا
يخدعون إلا أنفسهم . فالله سبحانه وتعالى يعلم نفاقهم
والمؤمنون قد يعلمون هذا النفاق فإن لم يعلموه فإن الله
يخبرهم به ، واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَوْ فَشَاءَ
لَأَرَيْنَكُمۡ فَلَعَرَفْتُمۡهُمْ يَسِيمُهُمۡ وَلَتَعَرَفْتُمۡهُمْ فِي لَحَنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ
يَعْلَمُ أَعْمَلِكُمۡ ﴾ [سعد : ٣٠]

ألم يأت المنافقون إلى رسول الله ﷺ ليشهدوا أنه رسول
الله ففضحهم الله أمام رسوله وأنزل قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَكَ
الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ
وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ كَاذِبُونَ ﴾ [المنافقون : ١] .

جاء المنافقون إلى رسول الله ﷺ يشهدون بصدق رسالته
ولله سبحانه وتعالى يعلم أن هذه الشهادة حق وصدق لأنه
جل جلاله يعلم أن رسوله ﷺ صادق الرسالة ولكنه في
الوقت نفسه يشهد بأن المنافقين كاذبون . كيف ؟

كيف يتفق كلام الله مع ما قاله المنافقون ثم يكونوا كاذبين ؟
نقول : لأن المنافقين قالوا بألستهم ما ليس في قلوبهم ، فهم
شهدوا بألستهم فقط أن محمداً ﷺ رسول الله ولكن قلوبهم
منكرة لذلك مكذبة به ، ولذلك فإن ما قاله المنافقون رغم إنه
حقيقة إلا إنهم يكذبون ويقولون بألستهم ما ليس في قلوبهم
لأن الصدق هو أن يوافق الكلام حقيقة ما في القلب ، وهؤلاء
كذبوا لأنهم في شهادتهم لرسول الله ﷺ لم يكونوا يعبرون
عن واقع في قلوبهم بل قلوبهم تكذب ما يقولون ..

وهناك آيات كثيرة في القرآن الكريم يفضح الله سبحانه
وتعالى فيها المنافقين ، ويسبى رسوله ﷺ عما يضمرونه في
قلوبهم إذن فخداعهم لمؤمنين رغم أنه خداع بشر لبشر إلا
أنه أحيانا تفلت ألسنتهم فتعرف حقيقتهم ، وإذا لم يفلت
اللسان جاء البيان من الله سبحانه وتعالى ليفصحهم وتكون
حصيلة هذا كله أنهم لا يخدعون أحداً فالله يعلم سرهم
وجهرهم ، فمرة يعين الله المؤمنين عليهم فيكشفونهم ، ومرة
تفلت ألسنة المنافقين فيكشفون أنفسهم .

إذن فسلوك المنافق لا يخدع به إلا نفسه ، وهو الخاسر فى الدنيا والآخرة ، عندما يؤدي عملاً إيمانياً فالله يعلم أنه نفاق ، وعندما يحاول أن يخدع المؤمنين ينكشف ، والنتيجة أنهم يعتقدون بأنهم حققوا لأنفسهم نفعاً بينما هم لم يحققوا لأنفسهم إلا الخسران المين .

قال تعالى : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [البقرة : ١٠] .

فالله سبحانه وتعالى شبه مافى قلوب المنافقين بأنه مرض والمرض أولاً يورث السقم فكأن قلوبهم لا تملك الصحة الإيمانية التى تحى القلب فتجعله قوياً شاباً ولكنها قلوب مريضة ، لماذا كانت مريضة ؟ لقد أتعبها النفاق وأتعبها التنافر مع كل ماحولها وأحست إنها تعيش حياة ملؤها الكذب فضطراب القلب جعله مريضاً ولا يمكن أن يشفى إلا بإذن الله وعلاجه هو الإيمان الحقيقى الصادق ذلك الذى يعطيه الشفاء والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء : ٨٢] .

إذن فالإيمان والقرآن هما شفاء القلوب ، كلاهما بعيد عن قلوب هؤلاء المنافقين فكأن المرض يزداد في قلوبهم مع الزمن والله سبحانه وتعالى - بنفاقهم وكفرهم - يزيدهم مرضاً . وهذه هي الصفة الثالثة للمنافقين .. إنهم أصحاب قلوب مريضة سقيمة لا يدخلها نور الإيمان ولذلك فهي قلوب ضعيفة ليس فيها القوة اللازمة لمعرفة الحق . وهي قلوب خائفة من كل ماحولها ، مرتعبة في كل خطواتها ، مضطربة بين مافي القلب ، وما على اللسان والمريض لا يقوى على شيء وكذلك هذه القلوب لا تقوى على قول الحق ، ولا تقوى على الصدق ، ولا ترى ماحولها تلك الرؤية التي تناسب وتتفق مع فطرة الإيمان التي وضعها الله تعالى في القلوب ، ولذلك إذا دخل المنافقون في معركة في صفوف جيش المسلمين .. فأول ما يبحثون عنه هو الهرب من المعركة يبحثون عن مخبأ يختفون فيه أو مكان لا يراهم فيه أحد والله سبحانه وتعالى بصفهم بقوله : ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلَجًا أَوْ مَغْرَبًا أَوْ مُدْخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْتَحُونَ ﴾ [التوبة : ٥٧] .

لماذا ؟ لأنهم أصحاب قلوب مريضة لا تقوى على شئ
ومرضها يجعلها تهرب من كل شئ وتختفى . وليت الأمر
يقنصر عند هذا الحد ولكن ينتظرهم في الآخرة عذاب أليم
غير العذاب الذى عانوه من قلوبهم المريضة فى الدنيا ، فيما
كانوا يكذبون على الله وعلى رسوله ينتظرهم فى الآخرة
عذاب أليم أشد من عذاب الكافرين . والله سبحانه وتعالى يقول :
﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ [النساء : ١٤٥] .



الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة الناشر	٣
الإخلاص فى العمل	١٩
التواصى بالحق والخير	٢٢
الضرب على يد صاحب المنكر	٢٥
الاستقامة	٣٢
الثبت والتبين وعدم التسرع	٣٥
النهى عن السوء وسيلة النجاة	٦١
النهى عن تزكية النفس	٦٦
الرحمة واللين فى النصيح	٦٩
الصحبة بالمعروف لغير المؤمن	٧٨
الرضا بالقضاء يرفعه	٨٤
ثمره الرضا بقضاء الله	٨٦
التكامل والتعاوض سنن الله تعالى فى خلقه	٩٣

٩٨	التوكل على الله وحده
١٠٠	الاحتساب
١٠٢	معية الله ثمرة من ثمرات الاحتساب والتوكل
١٠٨	إخلاص التوكل
١١٢	رذيلة البخل
١١٩	عداوة الأخلاء
١٢١	البخيل يسر للطائع طاعته !!
١٢٣	سبب البخل
١٢٧	أسباب الشح
١٤٢	تحريم الإنفاق رياء الناس
١٤٦	الاحتراز من صفات المنافقين
١٥٩	الفهرس

